ماهر البطوطى

عُزلة النسْر



رواية

تجليات أدبية

تقديم

ماهر شفيق فريد



ميريت

للنشر والمعلومات

عزلة
النسر

عزلة النسر

ماهر البطوطى

الطبعة الثانية، 2003

6 (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: 5751500 (202)

merit56 @ hotmail. com

الغلاف : **إلياس فتح الرحمن**

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: **2003/2151**

الترقيم الدولى: **977-351-065-4**

عزلة النسر

رواية

تأليف: ماهر البطوطـــى
تقديم: ماهر شفيق فريد

ميريت للنشر والمعلومات
القاهرة 2003

إهداء

إلى جماعة "العقول"

جماعة الجيل الرائع!

هذه الرواية

علـــى امتداد أربعة عقود، منذ الستينيات حتى يومنا هذا، عرف القارئ ماهر البطوطى (الذى يعيش حالياً فى نيويورك بعد أن عمـــل مترجماً وكبيراً للمحررين فى الأمانة العامة لهيئة الأمم المتحدة هناك) مترجماً قديراً عن الإنجليزية والفرنسية والأسبانية، يـــنقل إلـــى العربـــية رائعـــة جيمزجويس" "صورة فنان شاب" ، و"حاضـــرة الدنـــيا" لهمنجواى، وكتاب هوتشنر "بابا همنجواى" ، وأعمـــالاً شـــعرية للوركـــا وبـــابلو نيرودا، ومسرحيات للوركا ومرجريـــت دورا وجبران خليل جبران، ونماذج من أدب أمريكا اللاتينـــية فـــى الرواية والقصة القصيرة، وكتابا عن الفن الروائى للـــناقد الـــبريطانى المعاصـــر ديفيد لودج، كما يعكف فى الوقت الحاضـــر على إخراج ترجمة عربية جديدة لديوان ولت وتمان – شاعر الديمقراطية الأمريكية – "أوراق العشب".

كذلـــك عـــرفه القـــارئ ناقدا نافذ البصيرة، وباحثا واسع الإطـــلاع فـــى كتـــبه عن "لوركا شاعر الأندلس" و"أفلام أهملتها الأقـــلام" و"بين الفن والأدب" (حيث يتجلى اهتمامه الحاد بالفنون التشـــكيلية شأنه فى ذلك شأن إدوار الخراط والدكتور نعيم عطية وقلائل آخرين) و"رواة وروائيون من الشرق والغرب" فضلا عن عديـــد مـــن المســـاهمات ، لـــم تجمع بعد بين دفتى كتاب، على

صـــفحات مجلات "الهلال" و"تراث الإنسانية" و"الشعر" و"الجديد" و"الآداب" (البيروتـــية) من بينها مقالة ضافية عن رواية همنجواى "العجوز والبحر" ، وأخرى عن اكتشاف حجر رشيد وحل رموزه.

والـــيوم يلـــتقى القـــارئ بماهـــر البطوطى روائيا وضع خبراته الحياتية والثقافية والفكرية والوجدانية فى هذه الرواية ذات المذاق المتفرد، والفكر المعذب بقضايا المعرفة والفرد والمجتمع، والتقنـــية الحداثية التى ترتوى من ينابيع كثيرة: تيار الشعور عن جويـــس، آلـــيات الذاكـــرة عند بروست ، حفاوة الأدب الوجودى بحـــالات الوعـــى المخـــتلفة من مضض وقلق وهم، خيط البحث الكافكـــاوى فى عالم زالت عنه العلامات الهادية وضوء الطريق، إلى جانب نفس شعرى ممتد يتجلى – على أبسط المستويات وأكثر مباشرة – فى هذه الأصداء الشعرية الكثيرة التى ينثرها البطوطى فـــى تضـــاعيف روايته، بدءا من "عزلة النسر" (وهى مقتبس من ديـــوان أدونـــيس العظيم" كتاب التحولات والهجرة فى أقاليم الليل والـــنهار") وانـــتهاء الأبيات التى يُصدر بها فصول الرواية: من المتنـــبى وحســـب الشـــيخ جعفـــر وأحمد فتحى تارة ومن إليوت وتنســـون ونـــيرودا ووردزورث تارة أخرى، مع إلمامات بسفر الجامعـــة سليمان بن داود ، فضلا عن إشاراته فى فن الرواية إلى قصـــيدة كولردج "الملاح الهرم" ولوركا وفروست ووتمان ورنبو وقصـــائد أندريـــة بريتون (يدعوها البطوطى: رمزية والأدق أنها سيريالية). وتقوم هذه الأصداء الشعرية فى مواجهة إشارات أدبية أخـــرى تكـــاد تـــند عـــن الحصر لفرط كثرتها وتنوعها: "رسالة

الغفـــران" لأبى العلاء، طه حسين، ثلاثية نجيب محفوظ ، السيرة الهلالـــية، كوميديا دانتى الإلهية، "مكبث"، رواية د. هـــ. لورنس "قوس قزح" همنجواى ، نقد أ. أ. رتشاردز، مسرحية إليوت "مقتلة فـــى الكارتدرائـــية"، "غريـــب" ألبير كامى (مع مقارنة بين كامى وســـارتر فـــى حـــوار بين بطل الرواية وأحد أصدقائه) ، أجاثا كريســـتى، كولن ولسون. وهناك إشارات أخرى إلى فرويد وأدلر ويونـــج وإرنست جونز (لا يسمى البطوطى هذا الأخير وإن أشار إلى تفسيره لمسرحية "هملت" على ضوء المركب الأوديبى)، وفيلم ســـينمائى عـــن فـــرويد ، لوحـــات رفاييل وميخائيل أنجلو ، إلى الخـــنافس، موسيقى الروك آندرول، وفى الخلفية – كيف يمكن أن يكـــون الأمـــر غير ذلك ؟ تنهض الميثولوجيا اليونانية والأصداء الهومـــرية بكـــل ثـــرائها: قصر تيه عولس (أهو عولس أم الملك ميـــنوس؟) ، الأميرة نارسيكا تلعب بالكرة مع أترابها على شاطئ البحر قبل أن تبصر جسد عولس الذى قذفه الموج إلى جزيرتهن، الـهـــبوط إلـــى العـــالم الســـفلى (هاديز) ، بائع الفاكهة ذو العين الســـايكلوبية الواحدة، وقبل ذلك كله رحلة البطل فى يومه وكأنها رحلـــة عولـــس العائد من غياب عشر سنوات فى حرب طروادة. وتقـــابل هذه الأصداء الغربية أصداء قرآنية وإشارات إلى التراث العربى شعرا ونثرا.

كتـــب ماهر البطوطى هذه الرواية – روايته الأولى – ما بين القاهرة ومدريد ونيويورك على امتداد أحد عشر عاما (1969 – 1980) وواكبـــت رحلته فى الزمان والمكان رحلة بطله سامى

سالم الذى يحمل ملامح من المؤلف ذاته، فهذه - ولا نكران - رواية أوتوبيوغرافية إلى حد ما، تمزج بين وقائع السيرة الذاتية وخبرات الآخرين وملكات التخيل التى تعيد إنتاج هذا كله فى سياق جمالى جديد.

تنتمى "عزلة النسر" إلى ذلك الجنس الأدبى الذى يدعوه الألمان Bildungsroman أى رواية التربية الوجدانية للبطل، وبيان المؤثرات العقلية والروحية والجسدية، الفردية والاجتماعية، التى عملت على تشكيل شخصيته ونحت تضاريسه الذاتية وتحديد نظرته إلى الحياة. هذا جنس أدبى عرفناه - وعرفه البطوطى - فى أعمال من قبيل "آلام الشاب فرتر" لجوته و"التربية العاطفية" لفلوبير و"الأحمر والأسود" لستندال و"صورة فنان شاب" لجويس و"أبناء وعشاق" للورنس و"أمريكا" لكافكا و"اللاأخلاقى" "لأندريه جيد و"البحث عن الزمن الضائع" لبروست و"الجبل السحرى" لتوماس مان و"قصة شاب" لهرمان هيسه و"الغثيان" لسارتر و"الغريب" لكامى وغيرها. وعرفته الرواية العربية فى "إبراهيم الكاتب" للمازنى و"سارة" للعقاد و"أديب" لطه حسين و"عصفور من الشرق" للحكيم وتجربة كمال عبد الحواد بثلاثية نجيب محفوظ، وتجربة ميخائيل فى روايات إدوار الخراط، وبطل "تلك الرائحة" لصنع الله إبراهيم، وغيرها من الأعمال.

والرواية تنخرط أيضا فى سلك ما يدعى بالفرنسية raman a clef أى الرواية المفتاحية التى تروى أحداثا حقيقية من الماضى القريب أو الحاضر المعيش مع إخفاء أسماء

الشخصيات الحقيقية ومنها أساء مخترعة. ولن يصعب على القارئ هنا أن يجد مفاتيح لهوية بعض شخصيات الرواية : فالدكتور رفيق والدكتور صبرى هما - على التوالى - الدكتور أمين روفائيل والدكتور مجدى وهبة أستاذى الأدب الإنجليزى الراحلين بجامعة القاهرة. وشخصيات توفيق "العدمى" وبديع وعدلى تشير إلى أصدقاء للبطوطى وإنى أتحرج من تسميتهم إلى أن يتخلى غبار المعاصرة ونغدو جميعا جزءا من التاريخ.

بطل الرواية - أو فلنقل بؤرة وعيها المركزية - شاب مثقف حساس تخرج فى قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب فى 1961، يطمح إلى دراسة الأدب المقارن فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وموظف حكومى فى إحدى الوزارات. وخلفيته الاجتماعية والحياتية والثقافية توحى بها إشارات إلى طفولته فى بنى سويف، وزملائه فى العمل، وإحباطات علاقته بسناء (مع فتيات أخريات: سهير وشريفة ونجلاء فى الخلفية) ولحظات سعادتهما الماضية، وغيرته المرضية عليها على نحو يكاد يسترجع شخصية سوان فى رواية بروست. وتسجل الرواية سلسلة من الإخفاقات المتتابعة فى مجال الوظيفة ومجالات العاطفة والجنس على السواء تحدث أثرا تراكميا قويا حتى لنتساءل مع البطل: "ما بال كل شىء اليوم ينتهى إلى إحباط وهزيمة ونكسة؟".

إنه - إذا استعرنا عنوان كتاب للدكتور غالى شكرى - "يوم طويل فى حياة قصيرة". ومرة أخرى لا نملك إلا أن نردد مع سامى سالم: "ياالله ! كم كان هذا اليوم على قصره ومحدوديته

عامرا بالأحداث الجسام". وفى الختام يعود البطل إلى غرفته عودا فـرويديا إلـى الرحم الذى يقى الوليد صدمات الميلاد وإحباطات الرغبة وإرباك الأصوات والأشكال والألوان والأنوار والظلال فى العالم الخارجى.

ومـن أجمل مشاهد الرواية لقاء البطل بالبغى سميحة فى بنسيون أحد أصدقائه، وكم أتمنى أن يعكف أحد نقادنا على تحليل هـذا المشـهد ومقارنته بمواقف مشابهة فى ثلاث روايات سابقة: تجـربة كمال عبد الجواد الجنسية الأولى فى درب البغاء ("قصر الشـوق")، تجـارب أبطـال "مـن أجل ولدى" لمحمد عبد الحليم عبدالله، و"الموهوم" ليونس الخضراوى. من شأن مثل هذه الدراسة أن تلقـى أضـواء كاشـفة على تطور الخبرة الجنسية فى سياق حضارى متغير وأوضاع اجتماعية مغايرة .

هذا عن بطل "عزلة النسر". أما الزمان فتحده إشارات – منبـثة فـى ثـنايا الرواية – بأنه أواخر الستينيات ، عقب هزيمة يونـيو 1967 وكل ما جاء فى أعقابها من انقشاع للأوهام وكآبة جماعـية وإحـباط عـام يـنعكس على حيوات الأفراد وأنماطهم السـلوكية ونوعـية استجاباتهم وتفاعلهم مع العالم الخارجى ومع ذواتهم الباطنة .

فنحن نتعرف على كنه اللحظة الزمنية من خلال إشارات إلـى مهاجمـة الطائـرات الإسرائيلية مواقع الفدائيين فى لبنان ، وعـبور الفدائيـين المصريين قناة السويس ونصبهم كمينا للجنود الإسـرائيليين، وقرار الرئيس الأمريكى لندون جونسون استئناف

الغــارات الجوية على مدن فيتنام وقراها، والسواتر الحجرية أمام عمــارات القاهرة وبيوتها فى زمن الحرب (أثمة ما هو أشد عقما فــى مواجهــة الخطر الآتى؟) كما نتعرف - سيميولوجيا - على اللحظــة الحضــارية مــن خلال علامات كطرق تصفيف النساء شعورهن على نسق الإمبراطورة فرح ديبا أو جاكلين كنيدى.

والمكــان - الذى يذوب فى الزمان، شأن القص الحداثى، فــلا ينماز أحدهما عن صاحبه - هو قاهرة الستينيات: العجوزة، جاردن سيتى، شارع النيل، كورنيش النيل فى المنطقة الممتدة من مــيدان الــتحرير إلــى شارع القصر العينى، كازينو على النيل، جــروبى سليمان باشا، بنسيون بوسط البلد فى شارع الأنتكخانة . هــذه مســارح جــولات البطل ولقاءاته ومجلى ذكرياته وساحة نجاحاته وإخفاقاته.

وكمــا هو الشأن فى "عوليس" جويس - أستاذ البطوطى وأســتاذ كــل الحداثيــن فى فن القص - نجد تجاورا بين تقنيات الرمــزية الإيحائــية وأساليب السرد الواقعى المفصل الدقيق حتى لــيكاد يشفى على تخوم الناتورالية. إننا نجد - إلى جانب التحليق الشــعرى والتأملات الفلسفية والغوص فى أعماق النفس - التفاتا دقــيقا إلــى تفاصــيل الحياة اليومية والمشهد الاجتماعى، ووصفا مفصــلا لأصــناف الطعام ولباس النساء، مما يغرس الرواية فى أرض الواقــع المعــيش ويــنأى بها عن تهويمات التجريد، وهى الخطر الذى يتهدد هذا النوع من الروايات.

وعـــندى ان "عــزلة النســر" إذا نظرنا إليها فى سياقها الحضارى والإبداعى، أحدث حبة فى منظومة من الأعمال تشمل: "فـــى ظــلال النكســة" للروائى والصحفى الراحل وديع كيرلس، ومجموعـــة "خــريف الأزهــار الحجــرية" لماهــر شفيق فريد، وأقصوصـــة "ذلك اللحن" لأيمن الأمير (نشرت فى مجلة (جاليرى 68") . ينــتمى هــؤلاء الكــتاب الأربعة إلى جيل واحد تعرض لمؤثرات متشابهة وإن انشعبت بأفراده السبل فهم جميعا من مواليد الفترة 1939 – 1945 ومن خريجى قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلـــية الآداب، جامعـــة القاهرة. وإبداعهم القصصى – على قلته كمـــياً – ذو ملامـــح مـــتفردة فى حقلنا القصصى، إذ يغلب عليه الاســـتبطان والتشـــاؤم والكآبة وتصوير شخصيات مثقفة حساسة علـــى غـــير وئـــام مع واقعها، مع ميل إلى التجريب واصطناع الحداثة الغربية فى العقود الأولى من القرن العشرين (تداخل الحلم والواقـــع، تداعى الأفكار، اختراق المحرمات التقليدية دينا وسياسة وجنســـا، شـــحن الألفاظ بالظلال والإيحاءات ، التناص الوفير مع نصـــوص ســـابقة، استرجاع ذكريات الطفولة والصبا والمراهقة والشباب وإدماجها فى اللحظة الراهنة، إلخ..) وانغماس عميق فى الآداب الغربية (خاصة الأدب الإنجليزى، وبدرجة أقل: الفرنسى). وروايـــة الـــبطوطى هى درة هذه "المدرسة" فى نسختها المصرية وهـــى أنضـــج ثمارها إذ تكاد تخلو من أغلب العيوب الفنية التى تشـــوب أعمـــال كـــيرلس وفريد والأمير وتتفوق عليها من حيث حـــرارة الـــتجربة المضـــيئة المشـــعة، وزخم اللغة المستخدمة، والمزاوجة بين الهم العام والهم الخاص.

صـــدرت الطبعة الأولى من "عزلة النسر" لأول مرة عن الهيــئة المصرية العامة للكتاب فى 1995 ولم يكد يلتفت إليها أحد من نقادنا، مما يومئ إلى خلل خطير فى مقاييس تقديرنا وانضباط معايـيرنا النقدية. ولعل صدور هذه الطبعة الجديدة – فى إخراج آنق وأليق بهذه الدرة الإبداعية – يكون حافزا لانتباه النقاد – ومن وراءهم جمهرة القراء – إلى عمل لا يخلو (شأن الأعمال الأولى لمؤلفـيها) مـن شـروخ ولكـنه – على ذلك – من أهم الأعمال الروائـية التى أبدعها كاتب ينتمى زمنيا – لا مزاجيا – إلى جيل السـتينيات ، ويتميز عن مجايليه – ممن حظوا بشهرة عريضة – فكرواً وتقنيةً على السواء.

ماهر شفيق فريد
المهندسين، أكتوبر 2002

ارتعب أتجاسر
استنجد بالغابات والبرارى
بالطينة الأولى
بشهامة الفهد وعزلة النسر

"أدونيس"

- 1 -

الزمن الحاضر والزمن الماضى
ربما كانا حاضرين فى الزمن المستقبل
وربما كان الزمن المستقبل واردا فى الزمن الماضى.

"ت. س. اليوت"

فـتح عينيه فى غبشة الظلام الواهن الذى ينذر بالانقضاء عـاجلا، فوقعـتا دون وعى أو إدراك بعد على الصورة المهيبة السوداء المعلقة على الجدار المواجه للسرير، وفوقها أبيات شعرية لصاحب الصورة وجرت عيناه آليا على السطور:

"ما الدنيا إلا مسرح كبير
وما الرجال والنساء إلا مجرد ممثلين..."

واعـتدل فى مرقده نصف جالس على السرير، ثم التفت يسـارا إلى كومة من الكتب مصفوفة على حافة السرير اليسرى إلـى جـوار الحائط وتناول الكتاب الذى فى أعلاها، والذى كان مفتوحا على صفحة معينة ، وطفق يقرأ، مستعيدا ما كان قد انتهى إليه عند تلك الصفحة فى الليلة الماضية قبل أن ينام. وما لبث بعد وقـت مضى أن أحس بحركة تدب فى الحجرة المجاورة وأقداما تسعى فى الصالة ثم فى المطبخ. وسمع، إذ عيناه تطوفان بسطور الكـتاب الذى يقرأه، صوت إشعال الموقد ورنين الأكواب، ثم بعد قلـيل دلفـت الأم إلـى حجرته ووضعت كوب القهوة باللبن على المائدة التى على يمينه، بعد أن أزاحت أكداسا من الكتب حتى تجد مكانـا للكوب وجرى كل ذلك كخلفية للموضوع الذى يقرأ ، دون أن يـنقطع عـن القـراءة ، ودون أن تـنقطع حواسه عن تلقى الانطـباعات عمـا يدور من حوله . ومع أول رشفة من القهوة ، وصياحه: "الله...!" أدار مفتاح الراديو الصغير على يمينه أيضا.

"... وهاجمت الطائرات الإسرائيلية مواقع الفدائيين فى لبنان..."

"... الفدائيون المصريون يعبرون القناة وينصبون كمينا للجنود الإسرائيليين..."

"... الرئيس جونسون يقول أنه سيأمر باستئناف الغارات الجوية على مدن وقرى فيتنام..."

وبعد أن جرى الصباح على وتيرته المعتادة من إفطار وحلاقة ذقن وارتداء الملابس، تهيأ للخروج إلى العمل.

أدار مفتاح الراديو فأغلقه، واستدار جانبا وهو يهم بمغادرة الغرفة، وإذ به يرى فرشاة الشعر وهى تنبسط راقدة إلى جوار سطح الرخام. عاد إلى الداخل مرة أخرى وأمسكها ووضعها محاذرا وضعا أفقيا مستقيما. كانت تلك عادته، فقد كان يحس بالتشاؤم إذا غادر المنزل فى الصباح دون أن تستقر الفرشاة فى الوضع الذى يرتاح إليه. وألقى على الحجرة نظرة أخيرة. فوضى . لابد أن فوزية فى طريقها الآن إليهم وستقوم بترتيب الفراش والمكتبة بحيث تبدو الحجرة نظيفة منسقة حين يعود إليها فى المساء.

واحتمل حقيبته السوداء، حقيبة الأساتذة، وفتح الباب وهو يردد: "لا إله إلا الله"، ثم أغلقه خلفه وهو يضيف: "محمد رسول الله". كان هذا دعاء ثابتا اعتاد أن يردده فيما بينه وبين نفسه كل صباح. وكان يعتقد أن النطق بالجزء الأول من الشهادة وهو داخل المنزل، ثم ترديد الجزء الثانى منها خارج البيت كفيل بمنع الأذى

والشر عنه طوال اليوم، وكفيل له بالعودة سالما إلى نفس هذا البيت فى المساء. هبط السلالم وهو فرح مستبشر وانطلق إلى الشارع يتنسم هواء الصباح المنعش الحافز على اليقظة، بينما الدفء يسرى فى أرجاء الدنيا وينشر الأمن والطمأنينة.

وعند باب العمارة اصطدمت عيناه كالمعتاد بالساتر الحجرى القائم المقام أمام المنزل لحمايته من أخطار الغارات . وساتر مماثل أمام العمارة المواجهة وسائر العمائر الأخرى.

وسار فى طريقه المعتاد. وعند شارع شاهين رأى نفس المرأتين. كانت إحداهما تتحدث هذه المرة فى الموضوع الذى يشغل ربات البيوت جميعا.

– هل تتصورين أن يرتفع سعر الخضروات والفاكهة إلى هذا الحد المريع؟ لم أعد أدرى كيف أوزان مصروف البيت بعد الآن.

وبدت هذه الكلمات غريبة على أذنيه . ولاحظ أنها بدت غريبة أيضا فى أذن صاحبتها التى تسير إلى جوارها. وكانت الصديقة أصغر سنا من المرأة الأولى ، ترتدى ملابس سوداء، علامة ظاهرة على الحداد . وكانت عيناها شاردتين ، تهومان مع أفكار أخرى غير الأمور التى تتحدث عنها زميلتها. ورفعت يدها اليسرى إلى شعرها تسويه من عبث الهواء ، فالتمع فى إصبعها خاتم الزواج. ها.. غريب هذا المنظر. لابد أنها قد جرفتها أفكار بعيدة عن أسعار المأكولات ، ربما أمور تتعلق بزوجها، أو ربما بأولادها إن كان لديها أولاد. ستنسيان كل شىء بعد قليل.

وحيــن خــرج من شارع نوال إلى شارع النيل، بدت له الشــمس وقــد غمرت الجانب الأيسر من الطريق الذى يطل على الــنهر. واســتعد لعبور الطريق وهو يقرأ الفاتحة فى سره . لقد تعود أن يقرأها كل يوم فى نفس هذا المكان. وأحيانا، تبدو سيارة مســرعة آتية ، فيهرول جاريا إلى الناحية الأخرى وهو يتمتم بما بقــى من كلمات . وعند محطة الأوتوبيس على شريط الكورنيش رأى شــابا وفتاة الفتاة وجهها يضحك بشرا وابتهاجا مما قاله لها زميلها من عبارات، والفتى يطأطىء رأسه نشوة بنجاحه فى إثارة ضحكة على شفتى فتاته.

وانــتظم أخيرا على الكورنيش ، واستقر وهدأ وانتظمت خطواتــه ، فأخرج المصحف الصغير من جيب سترته الداخلى ، وفــتحه وطفــق يقــرأ فيه بعينيه، أحيانا ينطق أية تهزه بصوت خفــيض رتيــب. الطالــبات والطلبة تأخروا عن موعد مدارسهم يسرعون الخطى فى طريقهم، ومن تخلف منهم أملا فى أجازة أو فى التزويغ يتمهلون وهم يرددون أبصارهم فى المارة يستطلعون رأيهــم فيما يفعلون فى يومهم الجديد . "وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قــالوا إنمــا نحن مصلحون". الأوتوبيسات مزدحمة تكاد تختنق بسكانها المؤقتين وتميل على جوانبها، تأتى وتروح والناس يذهــبون ويجيــئون أمام البصر كأنما كل ذلك يجرى فى شريط ســينمائى متحرك. الكل يذهب ويروح وأنت واقف مكانك ترقبهم فــى دهشــة ووجــل. عربات الملاكى تقف فى إشارات المرور فينــتهزها راكبوها فرصة للتفرج على هذا الشخص الغريب الذى

يسـير وهو يقرأ فى كتاب هو القرآن الكريم لا شك فى ذلك، لابد أنه تائب قديم ولابد لمن يقول ذلك أن يكون قد درس ألبير كامى، أو قـرأه علـى الأقـل.. هـا.. لا أهمـية لذلك عندى. الأنيقات يضـطجعن فـى عربات الأجرة وتتطلع إليهن فى استكشاف لرد الفعل . "وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومـتاع إلى حين". شلة الموظفين قادمة، وهم تعودوا أن يصمتوا تماما عن حديثهم وصخبهم حين تمر بهم. لكم أود أن أعرف ماذا يقولـون عـن هـذا المشهد بعد أن أحاذيهم ثم يذهب كل منا فى الطريق المخالف. أو هل تذكر ذلك الرجل ذا اللحية البيضاء الذى كانت أقدامه تدق الأرض خلفك فى إصرار حتى إذا بلغك مد عنقه لـيرى مـاذا يطـالع هذا الأفندى الفارع الطول، فلما اكتشف أنه القـرآن الكـريم فى يدى رفع كفيه إلى السماء مبتهلا ضارعا أن يرحم الله الصالحين ويفتح على المؤمنين ويحمد الله استبشارا.

واقترب من مكان عمله، فطوى المصحف بعد أن وضع الشـريط الأصـفر عند الصفحة التى بلغها، ثم دسه فى جيبه مرة أخـرى ، ومال إلى أحد الحوانيت فاشترى بعض الحلوى، تموين الـيوم، وسـار حـتى بلغ تلك العمارة الشاهقة ووقف ينظر فى الصحف حتى يأتى دوره ليدخل الأسانسير.

خـرج عم سيد من الأسانسير فالقى إليه تحية الصباح فى قوة ولا مبالاة تعود عليهما مع مر الأيام، وردها عم سيد فى نفس نـبرة الصوت ونفس عدم الإكتراث بتبين شخصية الراكب، فالكل عـنده سـواء، ويلقى إليهم بنفس التحية ونفس الكلمات. هذا طبعا

عــدا الوزيــر، الــذى يهرول هابطا بالمصعد لحظة أن يدقوا له الجرس الخاص الذى ينبهه إلى وصوله.

صـــعد إلـــى الدور الخامس ، وخرج شاكرا لعم سيد أن أوصـــله، ووقف يبادل زملاءه عبارات محفوظة مكرورة بالدعوة للـــزيارة فى المكاتب وتناول القهوة، ثم خطا إلى غرفته. عصمت تجلـــس كعادتهـــا، كالقطة الصامتة تجتر عملها فى هدوء، وعادل قبالـــتها قـــد انحنى على أوراق فى يده. ألقى تحية الصباح فأجيب عليها. وبدأته عصمت الحديث:

- حمدا لله على السلامة. خيرا؟

- الله يســـلمك . أبدا، بعض المشاغل الطارئة. (أى نعم مشاغل سناء ومشاكل سناء).

- ومش الحمد لله برضه؟

- آه الحمد لله. ما أخبار البوسطة؟

- عظيم. جميعها تحولت ما عدا بعض الأوراق البسيطة فى انتظارك. هل تحب أن تأخذها الآن، أم بعد أن تشرب الشاى؟

وكـــان عبد البارى قد دخل يحمل صينية الشاى التقليدية وقد تراصت عليها الأكواب السمجة يتصاعد منها البخار المغبر.

- مية يا أستاذ سامى؟

- لا متشـــكر يـــا عـــم عبد البارى. أعطينى البوسطة يا عصمت من فضلك.

فقامــت عصمت وخلعت البالطو السميك وتناولت بعض الأوراق من أمامها وتهادت عبر الغرفة الواسعة إلى مكتب سامى.

- اتفضل.

- مرسى يا عصمت. إيه أخبار المذاكرة؟

- هــايل. انتهيت البارحة من الدرس الثانى أيضا. وكل ذلك بفضل مساعداتك القيمة يا أستاذ سامى.

- أيــن هــى المساعدات؟ لقد كان يجب على أن أبدأ فى ترجمة الدرس الثالث لك، ولكنك ترين طبعا مشاكل العمل التى لا تــترك لــنا فرصة. ولكنى آمل إن شاء الله أن نتمكن من إتمامه سويا قريبا.

- إن شاء الله.

وعــادت عصــمت ثانية إلى مكتبها. وتطلع إليها سامى. فتاة رقيقة جدا تكاد تذوب وهى تتكلم. وأنيقة أيضا. تهتم بملابسها رغم أنها لا تضع أى زينة. أما أجمل شىء فيها فهو صوتها، ذو اللدغة العجيبة والرنة الوضاءة.

وضحك سامى، ثم تبادل مع عادل بعض الكلمات التافهة وانهمــك فــى إنجاز البوسطة المتأخرة لكى يسلمها إلى المديرة، بينما إنهمك عادل فى قراءة صحيفة الصباح.

كــان يوما هاما بالنسبة لسامى. "الفدائيون يعبرون القناة إلى الضفة الشرقية"، فتغيبه عن العمل أمس لم يكن بسبب مشاغل كمــا قال لعصمت، ولا بسبب مشاكل سناء كما هتف قلبه الداخلى آلــيا، وإنما "مجلس الوزراء يقر الأسعار الجديدة" لأن المديرة قد

كلفــته بــإعداد مشــروع شامل لتنظيم الإدارة كلها، باعتباره أحد رؤساء الأقسام الموثوق فيهم. وكان لابد أن يضع خبرته وكفاءته فــى إعــداد هــذا المشــروع "أم كلثوم فى باريس للمساهمة فى المجهــود الحــربى" فهو يعلم أن نجاحه فى إعداده سيترتب عليه ترشيحه لأحد المناصب الهامة فى الوزارة .

وشــرب كــوب الشاى، ابتلعه ابتلاعا كما يفعل كل يوم، بين الكلمات التى يخطها على الصفحات ، والنظرات التى تقع بلا وعى على صحيفة عادل. وسأل الساعى عما إذا كانت المديرة قد وصــلت. ولمــا عرف أنها جاءت ، تناول التقرير الذى سهر فى إعــداده ليلة أمس ووضعه فى دوسيه كبير فاخر وحمله وهبط به إلى الدور الأسفل حيث مكتب المديرة.

ولمــا رآهــا استبشر للحالة التى كانت عليها، فقد كانت مــرتدية البلوزة الزرقاء البهيجة التى كانت تظهرها أقل من سنها عشــر ســنوات . شــعرها وقــد صففته لدى الكوافير على شكل تسريحة فرح ديبا التى يستريح إليها. وهشت لمرآه وسألته أول ما ســألت عن التقرير، فقدمه إليها فى صمت وهو يرسم على وجهه الابتســامة الــتى يــتلقى بها دوما طلباتها منه بخصوص العمل، ابتســامة التواضع الزائف. وتصفحت المديرة التقرير على عجل وقلبــت صــفحاته الفولســكاب التســع ، ثم شكرته ضاحكة على المجهــود الكبــير الذى بذله فى إعداده، قالت إنه شىء عظيم جدا وأنها ستقدمه على الفور إلى وكيل الوزارة الذى ينتظره الآن.

– مرسى جدا يا سامى.

- العفو يا فندم. أى خدمة.

وخـــرج يـــنقافز علـــى كعبى قدميه ، وسار فى الردهة الطويلة، وحيا الساعى المكلف بخدمة وكيل الوزارة تحية مباركة، ثم صعد على قدميه إلى مكتبه يتواثب فى خفة ونشاط.

- إيـــه يـــا أستاذ سامى، يظهر أن المدام مبسوطة منك خالص.

- لماذا يا ست عصمت؟

- إنك تبدو مستبشرا متهلل الوجه.

- أبـــدا. لقد كانت معتدلة المزاج جدا هذا الصباح. لو أن لك عندها مطلبا فسارعى إلى طلبه منها وأنا أضمن أنها ستجيبك إليه.

- ياليـــت هـــذا. إنى أود أن أستأذن منها غدا لأن عندى امتحانا فى المعهد.

- أى امتحان؟ انك لم تذكرى لى عنه شيئا.

- كلا. إنه امتحان تجريبى يعقده لنا أستاذ الصحة النفسية كاختبار شخصى، إنه الدكتور نجيب.

(آه... الدكـــتور نجيب. وطفولتك فى بنى سويف. أجل، طفولتك التى أصبحت نبعا للإلهام).

وفتح الباب، ودخلت ناريمان، زميلتهم فى القسم المجاور، لكـــى تـــتحدث فى التليفون الوحيد فى هذا الطابق، الذى كان على مكتب سامى. كانت ترتدى ثوبا ربيعيا أخضر ذا شراشيب تتماوج مـــع حركاتها، فبدت كلها ربيعية ليمونية جميلة فى هذا الجو الذى

يشـــيع فـــيه الـــبرود والروتيـــن . وبادلها سامى بعض الكلمات المازحـــة، فقد بدا مبتهج الفؤاد هذا اليوم. وكانت ناريمان تحادث إحدى صديقاتها، تعزيها فى وفاة شخص بدا كأنه عزيز جدا لديها. وكان حديثا جافا حزينا فاترا استغرق لحظات. عزاء واعتذار عن عدم تمكنها من الذهاب. وفقط. ووضعت السماعة.

– ما هذا... من مات؟

– والدة إحدى صديقاتى.

– آه.

– لم تكن تشكو من شيء . ولكنها ماتت فجأة فى الحمام مختنقة بالغاز. كانت تتفجر حيوية ونشاطا. كنت أعرفها، فقد كنت أزور صـــديقتى هذه كثيرا فيما مضى . ولكن صداقتنا فترت منذ زمن.

وســـاد صـــمت حزين مؤثر حرج. ونهضت ناريمان ، وتشـــاغل ســـامى فـــى البحث عن الأوراق التى سيتقدم بها إلى الوظـــيفة الجديـــدة. كـــان قد قرأ إعلانها بالأمس. وظيفة مغرية رائعـــة. العمل فى لبنان، الذى كان يهفو للسفر إليه طوال حياته. يبدو أن المال قد أصبح قريب المنال جدا، فالشروط تنطبق عليه، وبقليل من الحظ يختارونه لها. كان المطلوب مترجما يجيد لغتين بالإضـــافة إلـــى اللغـــة العربـــية للعمل فى شركة طيران كبرى ببـــيروت. وراجـــع الشهادات والصور على المطلوب. لم يبق إلا اســـتمارة الـــتقديم، وسيأخذها من مقر فرع الشركة بالقاهرة حين يذهب الآن.

وتجهـز للقيام، ونظرت إليه عصمت من طرف عينيها، ونظـر هو إليها فتبسمت ابتسامتها الخجول وسارعت بالنظر إلى الأوراق الـتى أمامهـا مـرة أخرى . ووضع بقية الأوراق فى الحقيـبة، ونهـض فـزرر الجاكت وتطلع إلى صورته فى الباب النحاسى العريض. وعندها دخل الساعى يخبره أن المديرة تطلبه، فـنزل علـى الفـور إلى مكتبها لكى لا يتأخر أكثر من ذلك عن الخروج إلى مهمته.

وجـد المدام فى غرفتها تتحدث فى التليفون، فانتظر أن تنـتهى وهو يتطلع إلى بعض الكتب فى المكتبة الصغيرة بالغرفة. لـم يكـن يعـرف أن مجموعة "لاروس" تتضمن قاموسا فى فن الطـبخ. ومـاذا عن قاموسها اللغوى؟ لقد صدر فى باريس طابع بـريد يحمـل صـورة مسيو لاروس. ووضعت المدام السماعة والتفتت إليه.

– معلهـش يا سامى. الدكتور لم يعجبه المشروع. يقول أنه غير عميق ، بالإضافة إلى أنه لم يمثل ما كان يريده بالضبط.

وفوجـئ سـامى تماما، فلم تكن قد انقضت ساعتان بعد على تقديمه للمشروع. ولم يدر ما يقول، وتمتم بكلمات:

– ماذا؟... ما الذى ينقصه؟

– لا أعرف. المهم أنه كان يريد فيه بعض النقاط التى لم تتعرض لها بالبحث.

– هـل لـى أن أرى تعلـيقاته لكـى أعرف ماذا يريد بالتحديد؟

- كلا، كلا. لقد كان يريد تحليلا أعمق وأمثلة أكثر، على ما أظن.

- وكـيف إذن سـأقوم بالتعديل المطلوب؟ هذه تعليقات عامة ليس إلا .

- لا، إنـه قد أحال المشروع إلى الأستاذ جلال لكى يقوم بإعداده من جديد.

(الأسـتاذ جـلال مـن بيـن كل أفراد الإدارة . خصمه اللدود!)

ودارى آلامه المفاجئة وصدمته القاتلة . وقال وهو يحاول التظاهر بالمرح:

- هذا عظيم . والله لقد استرحت من هذه المهمة الثقيلة.

وعـاد يجرجـر أذيال الفشل الذى لا يستطيع أن يجد له مبررا.

-2-

كانوا يحملون أغصان السيقان السحرية
على أجسادهم
محملة بالأزاهير وبالفاكهة
وكل من أخذها منهم أو ذاقها
تبدت له نفثات الأمواج القصية
تبكى وتنتحب على الشطآن القريبة
وإذا تكلم أحد الصحاب
خرج صوته رفيعا كأصحاب القبور.

(تنيسون)

حمل حقيبته الفاخرة بعد أن جهزها بالأوراق والشهادات. وخـــرج يمشـــى فى الطرقات الهادئة ، طرقات حى جاردن سيتى الأنـــيق ، يتطلع إلى الفيلات المتناسقة والعمارات الحديثة الجميلة الـــتى تـــريح العـــيون والمشاعر . لقد كان دائما يحب أن يسرح الطرف فى هذا الجمال الهندسى الهادئ فى تلك البقعة من القاهرة الســاحرة . تمـــاثل طرقات الزمالك الداخلية أيضا. وفيلات البحر فـــى الحـــى الجديد فى المنصورة ، وكان قد رآها حين ذهب فى مهمة رسمية إلى هناك منذ عامين.

ورأى أحد العمال يحمل جردل مياه وفرشاة ويعمل بهمة فى إزالة ملصق على جدار عمارة فاخرة كسيت واجهتها بالرخام المستورد. ورأى أن الملصق يقول "مصر مقبرة الغزاة" . وراعه أن يقـــوم ذلك الرجل بإزالة ملصق كهذا بينما لا يزالون يلصقونه على العمائر الأخرى فى أحياء أخرى. ولكنه رأى العمارة ولاحظ أنه ليس أمامها ساتر حجرى كما تقضى التعليمات.

وزفر زفرة هادئة من أعماقه وعاد إلى تأمل أحواله هو. إنهـــا دائمـــا معروضة فى ضميره وفكره فى خلفية محيطية من أحوال وطنه.

المشـــروع الـــذى تعبت فيه وسهرت عليه وضحيت من أجله بوقت كنت تزمع قضاءه مع سناء. وكنت تطمع فى عبارات مديح من الدكتور، وفى الترشيح لوظيفة وكيل الإدارة. ثم بعد ذلك لا تـــنال شـــيئا من هذا، بل وربما تصبح نقطة ضدك فى تاريخك الوظـــيفى . وفوق كل ذلك ينال المشروع خصمك العتيد من بين

كل موظفى الإدارة، وسينجح فيه حتما وينال الثناء والمنصب. كم مــن الوقــت استمر وكيل الوزارة يقرأ التقرير؟ ربما عشر دقائق لــيس غــير ، وهو الذى سهر فيه الليالى . ربما كان ضجرا أو مشغولا بأمر آخر غير هذا التقرير، أو منحرف المزاج من شجار مع زوجته، أو لأن أبنه قد طالبه ببذلة جديدة ، فلم يستوعب كلام التقرير ولم يدخل مزاجه.

وهكــذا تحــدد الصدف الهوجاء مصير الإنسان . أمامك فرصة ترك الوزارة ، ربما تنجح فى الحصول على منصب لبنان فــتعوض مــا فــاتك. ثم هناك فرصة أخرى متوثبة، فقد كان قد امتحــن منذ أيام فى امتحان القبول لدرجة الماجستير فى الجامعة الأمريكــية بالقاهــرة ، وهــى فرصة ذهبية للحصول على منحة دراسية بتلك الجامعة لإعداد الرسالة، ولن يكلفه ذلك شيئا ، بل أنه سينغمس فى عمل أكاديمى طالما حلم بالتفرغ له. وسينقذه هذا من المنافســات الوظيفية التافهة فى جهة العمل ويضمن له الحصول على لقب علمى يرجح كفته بعد ذلك فى أية منافسة.

مدرســة الليسية فرانسيه القريبة من الوزارة تدفع بأفواج الزهــرات خارج أبوابها . الفتيات النواضر اللاتى لم يمسهن ضر الحــياة بعــد ، تنطق عيونهن بالبشر والبراءة . الأردية الزرقاء المحبــبة الــتى تتناسب مع لون اللواحظ اليواقظ . الحياة متفتحة تعــبق بشــذى الشباب والانطلاق وتشجع على البهجة والأخذ من جمالهــا بنصــيب. هذه الصبية الرشأ ترمقك بطرف عينها وهى تضــحك وتمــيل على أذن زميلتها تهمس لها بكلمات وقد تضرج

وجهها بالحمرة. ويمضى سامى فى طريقه وقد انتشى كعادته من رؤيـــة النضـــارة والوجه الحسن ، بما يشيع فى فؤاده وفى روحه سكونا جماليا خالصا، يشبه فى أثره الأثر الذى كان ينادى به دائما الفنان السيكلوجى ريتشاردز فى مقالاته عن النقد الأدبى.

واستبشـــر مـــن ذلـــك الاتساق الذى يشعر به فى نفسه ، وزفـــر زفـــرة عميقة أخرجت معها الأسى الذى اعتراه منذ وقت قصـــير. الحياة منبسطة ومتغيرة ، والفرص تروح وتجئ ، ولرب فرصـــة تســـنح له اليوم فيكون لها أجمل الأثر بعد ذلك فى طول حـــياته وعرضها. وأفاق من تأملاته ليجد أنه لا يستطيع أن يعثر على مبنى فرع الشركة الذى قالوا له أنه على مبعدة خمس دقائق مـــن الوزارة . لابد أنه قد أخطأ الطريق فى هذا الحى الذى يشبه قصـــر تيه عولس. لقد ضل الطريق كما ضله من قبل ذلك التائه العظيم!

وانحـــرف إلـــى طريق جانبى كان قد مر به قبل ذلك ، ورأى علـــى مـــبعدة ، أمامه ، امرأة ذات جسد ممتلئ أثيل وشعر طويـــل. كانت تشتمل على رداء أحمر وهاج ، يبدو من بعيد كأنه نـــار وضـــاءة تشـــتعل نورا . رآها من على البعد . تسير مولية ظهـــرها له ، بيـــنما انسابت غدائرها المعقوصة خلفها تصل حتى أســـفل ظهرها تشي بالفتنة والأغراء . وانبعث الدفـــء يسرى فى أوصـــاله لـــدى رؤيتها، ونسى كل شىء إلا هذه اللوحة الجميلة. وأســـرع فـــى خطوتـــه حـــتى قاربها ، وطافت بحواسه أضواع الياســـمين ينبعث منها فى أريج فواح لا مثيل له . كان سامى يهتم

بالـــروائح والعطور، ومحل شاليمار فى مصر الجديدة شاهد على ذلـــك، ولهذا وجد فى هذا العبير الطاغى الذى كان يهيم به نبوءة وإلهامـــا. وكانت تنمو على جانبى الطريق أشجار الحور والسرو ذكية الرائحة ، حيث اعتادت أنواع الطير أن تبنى أعشاشها ، من العصـــافير والحمـــام واليمام ذات الألحان الهامسة . ووصل إلى مســـاهمة نغم خافت رخيم رقراق ينطلق من فم هذه الساحرة فبلغ أذنـــيه في شدو صاف، وأوسع من خطواته حتى يجاوزها فيتطلع إلى وجهها. وكانت قد اقتربت من حديقة كبيرة فيها سلالم رخامية وأصص من زهر القرنفل وأحواض من الزهور المختلفة الجميلة.

وفـــى وسط الحديقة كانت هناك أربع نافورات فى صف واحد ينبثق منها الماء صافيا: كما كان هناك فى طرف منها كرم كثـــيف محمـــل بالعناقـــيد الدواكن، العناقيد البللوية المتألقة. وظل ســـامى ينظر إلى وجه الحسناء الباهر وقد حاذاها ، وإلى عينيها الخضراوين الناعستين على تلك الخلفية المركزة الجمال فظن أنه فـــى الجـــنة. وتعجب وطال به العجب وهو يسير ويتطلع إلى هذا الوجـــه الجمـــيل الـــذى يفوق الوصف ويجمد الزمن فى لحظات جمالـــية ســـكونية . والتفتت الساحرة الفاتنة نصف التفاته ، ومن عينـــيها نصف المغمضتين ألقت نظرة على عابدها المسكين الذى وقـــع فـــى براثن سحرها. وابتسمت فأعطته كل فتنتها، وباد كل ما حوله من وجود : وقالت له نظرتها أنها ستجعله خالدا لا يحس مرور الزمن طوال أيامه كلها. وانقاد لها فى سحر غيبوبة ، وتبع خطواتها وسحرها وبسمتها كأنه قد شرب من كأس الجمال المغيب

للفكـــر. وظـــل يضرب فى أثرها من منعطف إلى آخر، وقضى الأمـــر وحزم أمره على أن يخاطبها فى أمره، بعد أن استيقن من حتمـــية الوصال، وكاد أن يظن نفسيهما واحدا، وإذا برجل ضخم الهيـــئة عـــريض الجثة عملاق القامة أغبر الوجه يخرج من باب إحـــدى العمارات القابعة فى هدوء على جانب الطريق ويتجه إلى المـــرأة دون كلام ويتأبط ذراعها ويسيران معا فى يقين وإصرار. وصـــدم سامى وفوجئ بهذا المنظر، ولم تترك المفاجأة له فرصة ليـــتدبر حـــزنه وألمـــه على فقدان صحبة هذه المرأة، وتوقف فى مكانـــه مـــن فرط اليأس والتهافت . وسارت الساحرة إلى جانب العمـــلاق الأغبر فى استسلام ودعة ، وأدارت رأسها تلقى نظرة رغـــبة وحـــب إلى سامى الذى تسمر فى مكانه ينظر إلى المرأة والـــرجل يبتعدان عن عينيه ، رويدا رويدا حتى يتحولا إلى نقطة مضـــيئة وأخـــرى ســـوداء ، ثم ينعطفان جانبا فيختفيان ، وأحس بمكانـــه ، وأحـــس بالشمس، وأحس بالطريق والناس ، وعاد إليه إدراكه فى بطء شديد، وآفاق يتلمس ما حدث له. وأفاق يبحث عن مكانـــه وأين أصبح، ووجد أنه قد ابتعد كثيرا عن النقطة التى كان فيها، ويتعين عليه أن يسير مسافة كبيرة إلى أن يصل إلى المكان الذى بدأ منه حتى يستطيع أن يستدل على موقع فرع الشركة الذى يبحـــث عـــنه. وبـــدأ بأن سار فى طريق العودة، وعند باب الفيلا الجمـــيلة التى تتضوع عطرا، فوجئ بسيارة نقل ضخمة تأتى من بعـــيد، محملـــة بـــبالات القطن ، يجلس فوقها حمال رث الهيئة ، يمسك فى يده شوكة ذات ثلاث شعب مما يستخدم فى ذرى القمح،

وأشـــار إلــيه الرجل والسيارة آتية مسرعة أن يبتعد عن الطريق، ولم يدر سامى ماذا يقصد الرجل بتلك الإشارة، فقد كان يسير على الرصيف والسيارة بعيدة عنه، ولم يشعر إلا وقد غرق فى رشاش لجـــى من الماء المتطاير من هنا وهناك، والرذاذ وقد برك فى كل جزء من أجزاء جسده وتكاثر على وجهه حتى كاد أن يكتم أنفاسه ويشرق به فى نهداته وزفراته. وأدرك ما كان يحذره منه الحمال، فقد كانت فى وسط الطريق بركة عميقة من الماء لم يكلف السائق نفســه عناء محاذاتها بل خاض فيها بكل سرعة العربة وثقلها مما أدى إلـــى انتقال مياه الحفرة كلها من الأرض إلى الحيز المجاور للعربة.

وارتخـــت ركبـــتا ســـامى وذاب قلبه، إذ أثير حنقه إثارة بالغة. وجاوزته العربة الضخمة ، وإذ ابتعدت عنه سمع ضحكات مكـــتومة تصـــدر عنها، وأطل رأس السائق من نافذتها يتطلع إليه يتبيـــن مـــدى الخســـائر ، بينما الحمال يلوح له بشوكته تشجيعا. والتفـــت ســـامى إلى نفسه فوجد حقيبته قد سقطت منه وسط هذه الجلبة، فانحنى والتقطها وهو يقطر بالمياه ، وانزوى إلى ركن من جدار الفيلا التى كان مارا بجوارها، وأخرج منديله النظيف يجفف به ما اعتراه من بلل الجسم والروح.

ونهض بعد ذلك واستأنف سياحته الضالة فى سبيل هدفه المنشـــود . وطفـــق يخرج من طريق إلى آخر ولا يكاد يبلغ فى الأفـــق مـــا يهديه، ولا من شخص يسأله أو يرشده. وفوق حجر مصـــقول يلمـــع، شاهد أحد بائعى الربابة – تلك الآلة الموسيقية

الشعبية – يجلس وقد ربع ساقيه وإلى جواره خرج ملأه ببضاعته الشـــائقة، بيــنما علق واحدة منها فى عنقه لكى يصل إليها بيديه، ووضع أمامه كوبا من الشاى كان قد طلبه من بائع الشاى الشعبى الـــذى يستكن إلى جانب الحائط الذى يجاور قسم الشرطة فى تلك المـــنطقة، والذى كان يزود الجنود والباعة الجائلين بحاجاتهم من تلــك التمويـــنات الضرورية. وكان بائع الربابات – وقد وهبه الله الخـــير والشـــر معا، فقد تجرد من نعمة البصر وإنما وهب منحة الصـــوت الشجى – ينشد بصوته تلك الاستلهامات العتيقة للأبطال الغابرين، فيحكى عن سيف بن ذى يزن، وعن الأميرة ذات الهمة وحمـــزة العرب وابى زيد الهلالى، كل فى عبارات قصيرة منغمة مـــنمقة ، وســـامى وقد وقف يرقبه من بعيد وقد ملكت عليه تلك الأناشيد لبه. قال المنشد:

يقول الفتى حسن الهلالى أبو عـــلى
بـــدمـــع جـــرى فوق خدى سكايب
ونــــيـــران قلبى كلما قـــالت تنطفى
يـــزيـــد لــــهـــا بين الضلوع لهايب
لفرقة مـــرعى صـــار قلبى ذائـــبا
وأصبحت كالسكران للخمر شارب
ويحيى ويونس نور عينى وضوها
على بعدهم دمعات عينى ســـكايب
فارقتهم ما كان قصدى فراقهم

ولــكــن أحوجتنى لذاك مطالب

أيا ترى مــرعى أراه بناظرى

وتزول أيــام الــعنا والمتاعب

أيا دهر يا غدار مالك غدرتنى

ففارقت خلانى وكــل الحبايب

وملــك الإنشــاد لب سامى، وتسلل إلى شعوره وكيانه ، فأحس العزلة والفراق يشتدان عليه، وهانت عليه الأيام والسنوات الــتى قضاها يبنى نمط حياته، وأحس بموقفه العجيب الحالى من التشتت والضياع ، وثار شجنه من أحداث حياته، فأحس كأنه على وشك البكاء تأثرا ، بينما كان المنشد قد انتقل إلى مقطع آخر يقول فيه:

تقول فتاة الحى عليا التــى شكت

ونــيــران قلبى زايدات الشعايل

وعينى تبات الليل لا تألف الكرى

أنوح كــما ناحت طيور البلابل

أقول وفى قلبى من البين لــوعة

من أجل أبو زيد لطيف الشمايل

أبو زيد عمرى ما نظرت لغيره

وحــبه غدا جوا فؤادى ملايل

فكان هذا فوق ما يطيق ، وانسالت دموعه صامتة إذ هو يذكــر ســناء ومــا تفعــل معه وما آلت إليه علاقته بها. وتنامى

إحساســه بالإحــباط وبرمــز صورته هو ذاته، فطافت فى ذهنه لمحــات ســريعة للآمال المحطمة للأرض منذ عام 1952 وحتى يونــيو 1967 الذى هوى فيه كل شىء وأصبح بناء الحب خاويا متداعيا وأطلالا ينوح عليها المنشدون.

وكأنمــا قــد خجــل أن يبكى كالطفل وهو فى الطريق ، بســبيله إلــى إحــدى المهام التى قد يتوقف عليها مستقبل أيامه، فكفكف دموعه، وتطلع حوله ليرى كيف يسير بعد ذلك، عله يلمح مــا يدله على الطريق الذى يسلك . وخطر له أن يسأل عن هدفه وأين يقع تماما حتى يتجنب مزيدا من ضياع الوقت والجهد. وسار فى طريقه ، وكان المنشد قد لملم آلاته وجر ساقيه مبتعدا . ورأى ســامى دكانــا قريــبا مزدانا، يحفل بأنواع متعددة من الفاكهة ، واقترب منه علّ أحدا فيه يدله على طريقه . ورأى البائع ، عملاقا عريضــا غزيــر الشعر ليس له من نعمة البصر إلا عينا واحدة ضــخمة . نظــر ولكــن لما تبين له أنه إنما يسأل عن الطريق ، أهملــه ولــم يلــق إليه كثير بال. وجال سامى ببصره بين أكوام الصــناديق الــتى رصت فوق الرصيف ، أصناف الخوخ والتفاح والبرقرق الفاخرة التى تجد رواجا بين سكان هذه الأحياء الفخمة . وجــذب انتــباهه علــى وجه الخصوص صناديق العنب بأنواعه العديــدة: عنــب فيومى متطاول الشكل، وبناتى مستدق مستدير ، وأســود يلهــب خــيال الرائى فيطير فى أجواء الكروم والزبيب والخمــريات والمشعشــعات. وانعكست أشعة الشمس على حبات العنب فتلألأت بالأضواء وألهبت الخيال ، حتى بات سامى وكأنه

قـد شـرب مـن خمـر الآلهة . واقتربت حسناء من الحسناوات الأجانب ، اللائى يعمر بهن هذا الحى، من البائع، وجالت ببصرها فـى البضـائع المعروضة ، ثم سألته عن ثمن الكيلو من العنب، مـتحدثة بلغتها الغريبة على البائع . وقال لها العملاق عن الثمن بما يحفظه عن ظهر قلب من الأرقام الإنجليزية، وكان الرقم الذى ذكـره لهـا ضعف الرقم الذى كان مكتوبا أصلا بخط دقيق على صـنف العنـب الـذى طلبته الأجنبية . وثارت النخوة فى صدر سـامى فتدخل ونبه البائع "السايكلوبس" إلى خطئه فى ذكر الرقم المطلـوب بالإنجليزية. ولكن البائع الأعور ثار وفار وهاج وماج وأرغـى وأزبد وطالب "سامى" بألا يتدخل فيما لا يعنيه وإلا فإنه سيسـمع ويرى ما لا يرضيه . وكانت الأجنبية قد أخرجت كيس نقودها وهمت بدفع المبلغ الذى طلبه الفكهانى ، ولكنها حين رأت هـذه المشاجرة المرتقبة توقفت عن البحث ونظرت فى دهشة إلى مـا يحدث وهى لا تدرى ولا تفقه ما ترى أمامها . واتجه سامى إلـيها وذكـر لهـا أن البائع يحاول أن يزيد السعر عليها بمقدار الضعف وأن عليها أن تصر على دفع نصف ذلك المبلغ فقط، وأن بإمكانهـا أن تسـتعين بالشرطة فى هذه المسألة لأنها تسىء إلى سمعة بلده. فنظرت الأجنبية إليه بدهشة ورددت بصرها بينه وبين العنـب وبيـن العملاق الذى وقف صامتا مبهوتا، ثم قالت للجميع بالإنجلـيزية "شكرا" ومضت دون كلمة بعد ذلك ودون أن تشترى شـيئا. وزفر الفكهانى زفرة غيظ واهتز جبينه وانتفخت أوداجه، واندفـع نحو سامى يلكزه فى كتفيه ويأمره بالابتعاد حالا من أمام

دكانــــه وأن يكتفى بما فعل ، ولكن سامى غضب من هذه المعاملة المهيــنة وثــارت ثائــرته الدفينة ولم يشعر إلا بذراعه وهى تلكم العمـــلاق فى وجهه ، واستقرت قبضته دون قصد منه بالقرب من عيــنه الوحــيدة . وشحب وجه العملاق، ونالت منه الضربة كل منال، فتدفق الزبد من شفتيه وتهاوى على المقعد المنصوب وسط صـــناديق الفاكهــة ونادى على صبيه الذى يعاونه فأقبل مسرعا يساعد معلمه على تلقى تلك الصدمة الكبرى.

وسار سامى قبل أن يستفحل الأمر ويزداد ضراوة، يسعى إلـــى هدفـــه بعد هذا التطواف التائه الذى أضاع كثيرا من وقته، ورأى أحد البوابين أمام عمارة شاهقة ، فاتجه إليه يسأله عن مقر الشـــركة. وكـــان جالسا وقد تربع على أريكة خشبية وقد استقرت "العمة" البيضاء على رأسه وكادت عيناه تنغلقان، بينما يلوك شيئا فى فمه ببطء ومهل مختمرين . ودار بينهما الحديث التالى:

- صباح الخير يا حاج.
- أهلا... وسهلا... ابن الأمرا الأكابر...
- من فضلك، ألا تعرف مكان شركة ال...
- أى شركة ؟ أهى التى يملكها ويديرها محمود بك؟
- والله لا أدرى، وإنمـــا أعـــرف اسمها فقط، وهى فرع لشركة رئيسية مقرها لبنان.
- يـــا ســـلام علـــى لبنان ، بلاد الجمال والخير الوفير، والجـــبال والأشجار والصنف الجيد. هل يا ترى تنوى السفر إلى هناك؟

- ربنا يسهل. المهم ، يبدو أنك لا تعرف مكانها؟

- حلفتك يا سيدى إذا أنت ذهبت إلى هناك أن تأتى لى ببعض العينات المطلوبة هنا، ما رأيك؟

- أية عينات ؟ إنما أسألك عن العنوان.

- مدد يا بدوى ، مدد، يا شيخ العرب...

وتاه فى غيبوبة بدوية ، ودس يده وهو يهتز فى جلبابه وأخرج قطعة عجوية المنظر واللون، قذف بها إلى جوفه ومد يده إلى كوب الشاى يحتسى منه رشفة نقلته إلى جنان الأندلس الفيحاء.

ولعن سامى الظروف التى تلقى فى طريقه بهذه العثرات العجيبة، ونظر إلى ساعته فوجد أنه لم يتبق إلا ساعة واحدة يغلق بعدها مكتب الشركة التى يقصدها لفترة الظهيرة ، وهو الذى يحب أن يأخذ أموره بتأن ومهل. فعاد أدراجه من هذا الطريق ودلف إلى فرع أخر منه أسلمه إلى شارع ضيق به أشجار كثيرة خضراء داكنة يتراكم التراب على أوراقها العريضة ، فغذ السير فيه ، وكلما سار أمدا تكاثفت الأشجار وغزرت وتلاقت أفنانها حتى انتهى به الأمر إلى السير تحت سقف من فروع الأشجار. وتعاظمت أوراق الشجر واشتد تلاقى فروعها حتى لم تعد تسمح لنور الشمس بالوصول إلى المكان . وأظلم الطريق، ولم يعد يرى أمامه من شيء، وبدا الطريق كأنه لا نهاية له ، واشتد الظلام، ورأى على بعد خطوات شيخا هرما فى بذلة رصاصية صيفية ، قائما على رصيف الطريق ينظر إليه. واقترب منه، فذعر

وأصـــابه الروع. لما هدأ تفرس فيه وأطال النظر. كان كأنما يرى أمامـــه أباه بعد أن توفى وطواه الثرى منذ خمسة عشر عاما، فقد كان هذا الشيخ الهرم يشبهه تمام الشبه. ولم يدر من أين جاء، فهو لـــم يره إلا فى هذا المكان ، وربما غطته الظلمة فلم يشعر به إلا قائمـــا هـــناك. وخاطبه سامى بصوت ورع وخلع عليه لقب الأب تكريما لسنه، وسأله أى شارع هذا، وبين له أنه يريد الوصول إلى مكان الشركة المقصودة . فأجابه الشيخ دهشا:

– أى بـــنى ، ما الذى قاد خطواتك إلى هذا المكان وهو بعيد عن وجهتك الأصلية ؟ يبدو أنك وصلت إلى هنا بعد تجوالات كثيرة انهكتك وأصابتك بالإعياء .

فأصـــاب سامى الغم والكرب من تحققه أنه قد ابتعد عن هدفه وضل الطريق. وهانت عليه نفسه ، واصطدم بصره بصورة أبـــيه مجسدة أمامه، فهوى إلى قطعة حجر أمام سور أحد المنازل فجلس عليها ، وخاطب صورة أبيه:

– لقـــد نصـــبت وكددت ولا أرانى قد سرت خطوة على الـــدرب الصحيح . اننى أحاول دائما وفى كل مرة أصاب بالفشل والإحـــباط. لســـت أدرى مـــاذا يمكننى أن أفعل بعد ذلك. يزدهر الحمقى والتافهون على هذه الأرض، ويبقى المخلصون دون شىء بالمرة. يا أبتى القديم ، فلتسدد خطاى الآن وإلى الأبد.

فـــتقدم الأب إلـــى ســـامى وهـــو فى جلسته المضطربة ووضـــع يـــده على كتفه ، ولكن "سامى" لم يشعر بها أبدا. وقال الأب:

- الأرض يـــرثها العباد الصالحون ، وإنما الدنيا يحياها العابثون اللاهون . ها أنت قد حطمك العصاة المتمردون . سوف تجد طريقك يا بنى ، وستعثر على ضالتك . ولكن أى شىء يجدى هذا؟

- ماذا تعنى؟ قل لى على الأقل أين اتجه فى سيرى حتى أعثر على مطلبى.

- ستعثر عليه. ستعثر عليه.

ولشـــدة دهشة سامى، وجد الرجل يتحرك بعيدا عنه، ثم اخـــتفى فى الظلمة دون أن يستطيع أن يستخلص منه ما يدله على الطـــريق الذى يسلكه إلى مقر الشركة. واستلهم سامى روح أبيه، وكـــلام ذلك الشيخ الذى ملأه بالعزم والتصميم ودفقة الحياة، وقام من فوره يبحث عن مخرج من ذلك الشارع العجيب ، وسار يملأه الإلهـــام والأمـــل. وفى مواجهة أحد المنازل الأنيقة، وفى شرفة الطـــابق الأول ، وجـــد فتاة جميلة لطيفة تجلس على كرسى وهى تطـــرز بعض المفارش. واقترب منها وقد جذبته إليه رقة وعذوبة تحـــيطان بهـــا، ونظـــرت إليه بعينيها الصافيتين مشجعة وعيناها تضـــحكان قـــبل شفتيها. ووقف سامى أمامها وقد سحره المنظر الخـــلاب، وفـــروع الأشـــجار ذات الزهور الحمراء اللطيفة تلقى ظلالهـــا المخملية على الفتاة فتزيدها حسنا وشفافية. وقامت الفتاة وهـــى لا تـــزال تطرز فى المفرش الذى بيدها، فإذا بها فاتنة من فاتـــنات الأغـــريق متجســـدة أمامـــه. وخاطبته عيناها عن مراده ومبـــتغاه ، وقـــد أدركت بإحساسها أنه فى ورطة وينشد عونها.

وذكر لها أنه قد طاف بهذا المكان طويلا بحثا عن شارع معين به فرع الشركة التى يريد الذهاب إليها. وأضاء وجهها بصفاء غامر عجيب، وأشرقت عيناها، وقالت له فى بساطة وتنغيم وهى تضحك:

- أنك قريب جدا منه الآن، فلم يضع سدى تجوالك. إن فرع الشركة فى الشارع الذى يقع خلف هذا المنزل مباشرة، وقبالته!

وشكرها سامى بلسانه وعينيه وقلبه، ونظر إليها ينهل من هذه الجمالية السكونية قبل أن ينطلق فى طريقه ويصل إلى الشارع الذى يمتد خلف منزل تلك الحورية، ويبحث قبالته. وبعد قليل، وجد أمامه لافتة نحاسية على أحد المبانى تقول "شركة الطيران الحديثة - فرع القاهرة".

وقف سامى أمام البناية الضخمة الفخمة. كان دائما يعجب بفن البناء وطالما سار على شاطئ النيل فى الزمالك يطالع ببصره تلك العمائر المتناسقة والفيلات التى تتناثر متراصة فى ذلك الطريق. كانت العمارة شاهقة، ذات أعمدة ضخمة فى واجهتها، ومرايات ناصعة براقة فى جوانبها الأمامية. وخطا إلى الداخل وصعد بضع درجات، وإذا به يقف أمام باب أنيق عليه لافتة تشير إلى اسم الشركة. ودفع الباب برفق ودخل.

وكأنما كان ما رآه ندفة من طرف أحلامه عن حياته فى لبنان. الأنوار الخافتة، والمكان قد أسدلت ستائر نوافذه، واضىء النور، وكل شيء يسبح فى شفافية من الهدوء والأحلام. وطالعه

أول ما طالع مكتب أنيق فى الردهة تجلس خلفه فتاة رقيقة تتحدث فـــى التلـــيفون. واقترب من المكتب ووقف إلى جواره ينتظر أن تنـــتهى الفـــتاة مـــن الحديـــث. كان أمامها الكثير من الخطابات، ومعظمهـــا مـــن أغلفة البريد الجوى، وعليها طوابع غريبة ذات ألـــوان براقة. لابد أنها السكرتيرة . إنما هل هى سكرتيرة الشركة أم ســـكرتيرة المدير الخاصة ؟ لابد أنه مدير سعيد هذا الذى تعمل رهـــن إشـــارته مـــثل هذه الفتاة الجميلة. يالها من رقيقة ، أناملها مســـتدقة مســـتطرفة وعلى أظافرها مانيكير فى لون الفضة . هذا اللـــون أحـــدث موضـــة الآن. أنهـــا تحادث أحد المتقدمين لشغل الوظـــائف فـــى لبـــنان، فهى تكرر الشروط المطلوبة وترحب به لزيارة الفرع لملء الاستمارات اللازمة. ياسعادتى لو أعرف مثل هذه الفتاة، فهى تبدو وديعة على العكس تماما من سناء التى تبرز أظافرها عند كلمة منى. ولكن لا تحكم بالمظاهر، فقد كانت سناء وديعة تماما فى بداية علاقتكما، فهل أنت السبب فى التحول الذى طرأ عليها؟ لا أدرى.

وضـــعت السماعة ، وأمسكت بمظروف كان أمامها، ثم كأنما أحست بالواقف أمامها، فقد اهتزت عيناها البندقيتان وطوى الجفـــن المسافة بين مكانه ومكان العين مرات عديدة ، ثم طلعت عيـــناها صـــافيتين ناعستين رائعتين ، وتساءلت فى إنجليزية ثم مســـتدركة بعربـــية ســـليمة مع بسمة خجلى من اندفاعها بالعبارة الإنجليزية التى تجرى كثيرا على لسانها.

– لقد حضرت لأسأل عن الوظائف التى أعلنت عنها الشركة فى لبنان.

– أيوه يا فندم. حضرتك طبعا عارف الشروط؟

– لقد أحضرت بعض المستندات التى قرأت عنها فى الإعلان. وناولها سامى المظروف الكبير من حقيبته.

– من الأفضل وضع هذه الأوراق فى دوسيه . سأحضر لك واحدا من عندنا.

وابتسمت فى لطف ودماثة. واضطرب سامى. واحمر وجهه قليلا لأنه لم يفطن إلى حكاية الدوسيه هذه.

ومدت الفتاة يدها إلى داخل المظروف، ورتبت الأوراق التى كانت بداخله وأخذت تقرأها.

– حضرتك خريج آداب قسم فرنسى؟

– أجل. لقد درست به أربع سنوات. ولكنى خريج قديم نوعا ما.

– متى؟ دعنى أرى...

– عام 1961 . ثم أنى أواصل دراستى العليا هناك الآن.

– لست بالقديم جدا. لقد سألتك لأنى أدرس به أيضا. انى فى السنة الثالثة الآن.

– جامعة القاهرة أم عين شمس؟

– القاهرة مثلك . تعرف طبعا المسيو مارسيل فهو يعمل منذ عدة سنوات بالقسم.

وتبسم وجهها عن إشراقة صبح فريدة. ولاحظ سامى بابا ينفتح على مبعدة من مكتب الفتاة وتخرج منه موظفة نصف عمر تهرع إلى بهو مظلم لا تبين له نهاية.

- نعـم. وهو يعرفنى جيدا، فقد أعارنى بعض المراجع مـن مكتبـته الخاصـة . ولكـنى لا أراك حين أذهب إلى هناك لحضور محاضرات الماجستير.

- هناك الكثير من الطلبة والطالبات. وفى أى عصر من عصور الأدب الفرنسى تخصصت؟

- ولكـن لـيس هـناك الكثير من الطالبات لهن إشراقة وجهك. إن لك بسمة فريدة فى نوعها يا آنسة... بماذا أناديكى؟

- لعلـك مـثلى تحـب الأدب الحديث؟ أو ربما تحضر رسالتك فى فن الرواية التى أعشقها.

- أعـتقد أن اسمك لابد أن يكون مطابقا لرقتك وعذوبة حديـثك . وشـاهد طفـرة خفـيفة مـن الحمرة تحاول التسلل إلـى وجههـا وأن حاولت أن تتجاهل المجرى الذى اتخذه حديثه لها.

- ويا حبذا لو كانت عن"البيركامى" . ما رأيك فيه؟

- رأيـي أنك لطيفة جدا يا مدموازيل. اننى أعجب كيف لم الحظك قبل الآن فى الكلية.

- اقصـد "كـامى" وكتـب الوجودية . هل قرأت كتابه الفلسفى "المتمرد"؟

– يندر أن توجد فتاة مثلك تجمع بين الدماثة والجمال والاهتمام بالأدب والفن بهذا الشكل. اسمحى لى أن أعبر لك عن تقديرى وإعجابى بذلك.

– مرسى يا أستاذ سامى.

– وما هو اسمك حتى أناديكى به؟

– نجلاء.

– هل لى يا آنسة نجلاء أن أعرف رقم تليفون فرع الشركة هنا حتى يمكننى الاستفسار عما قد أريده؟

– طبعا. ها هو.

وخطت بعض الأرقام فى ورقة صغيرة وناولتها له . وشاهد يدها الناصعة البياض وقد غطتها حمرة طبيعية خفيفة، وأظافرها وقد اكتملت عنايتها بها. وشعر بقمة التوافق بينهما فى تلك اللحظة وأن هذه الفتاة هى التى كان يبحث عنها طول حياته، وما قصته مع سناء إلا محاولة فى وسط الطريق للوصول إلى نجلاء. شعر بذلك من تطلعات عينيها له ومن المشاعر التى تتدفق فى صدره عند رؤيتها، وعجب من ذلك وهو لم يرها إلا فى النصف ساعة الأخيرة. وربما كان موقفها منه هو الذى دفعه إلى هذا الإحساس بعد المواقف المضادة التى كان يتلقاها من سناء.

وافتر ثغر نجلاء عن ابتسامة ذات مغزى وقالت:

– نعود الآن إلى العمل. سوف أحضر لك الاستمارة اللازمة لملئها . وكل أوراقك كاملة فيما يبدو.

وفتحــت درجــا من إدراج مكتبها، وفتشت فيه قليلا ثم أغلقته ، ودقت جرسا . ولما لم يحضر أحد، قامت وهى تقول:

- لقد نفدت الاستمارات التى عندى، وسأذهب للبحث عن بعضها لدى زملائى.

- تفضلى.

وظــل سامى يتفكر فى هذه الفتاة الحلوة ، وعما يمكن أن يفعل معها فى حالة فوزه بالوظيفة المنشودة فى لبنان. سيتزوجها ويذهبان معا إلى هناك، وسيريها الدنيا بحالها، وسيمرحان معا بين الأشجار، ويعملان معا أيضا فى الكتابة والترجمة، وقراءة الأدب العالمى.

وجاءت نجلاء بعد فترة ، متجهمة الوجه.

- أسفة جدا يا أستاذ سامى. لم أجد أى استمارة متبقية.

- وهل لابد أن يقدم الطلب على تلك الاستمارة؟

- أجل، فهكذا جاءت التعليمات إلينا.

- اذن لابد أن يكون هناك حل آخر.

- لقــد بحثــت عــند جمــيع زملائــى فلم أجد واحدة، واستشــرت المديــر. وسنضطر والحالة هكذا إلى أن ننهى موعد تقديم الطلبات فهذه الاستمارات قد وردت إلينا من مقر الشركة فى بيروت.

- إذن ماذا أفعل؟

- لســت أدرى حقــيقة. إنــنى أحــاول مساعدتك بأى وسيلة.

- ربمـــا يمكنـــنى أن أتقدم بطلب عادى أذكر فيه جميع البـــيانات الخاصـــة بـــى . وسيعذروننى حين يعلمون بخبر نفاد الاستمارات الأصلية.

- سوف أسمح لك بذلك كظرف استثنائى، لأن المدير قال لـــى ألا أقـــبل طلبا بعد الآن. غير أننى أشك أن ينال طلبك حين تقدمـــه هكـــذا العناية التى ستنالها الطلبات الأخرى المقدمة حسب الأصول.

- ياسوء الحظ! ولكنى سوف أتعلق بهذا الأمل الواهى.

- كما تريد.

وانـــتحى جانـــبا فـــى الذهـــول المبدئى للصدمة، يكتب بـــياناته واسمه وعنوانه على صحيفة بيضاء، قدمها بعد ذلك إلى الفتاة.

- يا ترى أيوجد هناك ما أضيفه؟

ومرت عيناها على الورقة بسرعة.

- كـــلا . وإنما كما قلت لك من قبل، الأمل ضعيف فى مجرد بحث طلبك.

- انهـــا محاولـــة ليس إلا . وبالمناسبة، هل لى أن آخذ شهادة دبلوم اللغة الأسبانية لأصورها ثم أعيدها بعد ذلك؟ اننى فى حاجة إلى صورة الشهادة لكى أتقدم بها فى مكان آخر.

- بكل سرور، ولكن أرجو أن تعيدها لى فى صباح الغد، حيث أنك ذكرت فى طلبك أنها مرفقة بأوراقك.

- مؤكد يا مدموازيل نجلاء، غدا أن شاء الله.

ولاحـــظ أنهـــا لم تكد تسمع رده وهى تناوله الشهادة، فقد هرعت من فورها إلى بعض القادمين الجدد، تشرح لهم أن موعد التقديم قد انتهى لأسباب فنية .

وخـــرج مـــن المكان حزينا كاسف البال، ونسى حتى أن يلقـــى بالتحية إلى نجلاء. وكانت الدنيا على ما هى عليه، الشمس تســطع والـــناس تغدو وتروح، وإن كان هو يرى فيها الآن شيئا جديدا مرا. ورآها تنسحب من أمامه فى بطء وهدوء ، تاركة إياه بقعة وحيدة فى صحراء منعزلة مترامية الأطراف.

-3-

هكذا أعبر كالزجاج، شفافا ولا ظل لى
فى طريق من الأجنحة
أتحرر، أسجن أعضائى داخل أعضائى
أصير كبريق اللؤلؤة:
أضرب العيون وأعود إلى بؤرتى.

"أدونيس"

خـــرج من قبو فرع الشركة كأنما خرج من كابوس مظلم أطـــبق على أنفاسه . خرج ففاجأ النور عينيه بالأضواء النهارية. الحلـــم يـــتحطم ولكن لا مفر من المجالدة . ولقد قال كاتب عظيم يجلـــه كل الإجلال أن الإنسان قد يتحطم ولكنه لا ينهزم ، أو ربما العكـــس ، فهو نفسه لا يدرى. لابد أن أجاهد حتى آخر الطريق، سوف أواصل إكمال أوراقى لهذه الوظيفة رغم كل الصعاب التى أواجههـــا، ولسوف أذهب لتصوير الشهادة الأسبانية وأسعى حتى نهاية المطاف.

دلف سامى إلى دروب جاردن سيتى مرة أخرى . ولكنه ســرعان ما خرج من متاهتها إلى الطريق الواسع الكبير، الطريق الأم. خرج إلى شارع القصر العينى الذى يصب من هذه المنطقة إلـــى كـــل الأنحاء . وتوقف فى وسط الزحام المخيف يفكر كيف يذهب إلى وسط البلد لكى يبحث عن محل لتصوير الشهادة.

كـــان ثمـــة جـــنود متناثرين هنا وهناك بملابس الميدان، يذكّرون الجميع بأن البلاد فى حالة حرب، حرب خارجية وحرب داخلـــية ، ويعيدون إلى الأذهان ذكرى ذلك اليوم الغريب الكئيب الذى لا يزال يلقى بظلاله على جميع الأحداث وفى جميع النفوس.

ويـــتذكر وهـــو فى هذه المنطقة الجامعة الأمريكية . لقد ســـبق أن تقـــدم لامتحان القبول للدراسات العليا بها وامتحن منذ حوالـــى عشـــرة أيام ، وكان مقررا أن تظهر نتيجة الامتحان أول أمـــس. هـــل يذهـــب إلى هناك ليرى النتيجة الآن؟ لقد سمع من صـــديق أنها لم تظهر حتى أمس، ومن المنتظر أن تعلن بين يوم

وآخـــر. وعلـــى العموم، فالجامعة الأمريكية فى طريقه إلى وسط البلد ولا بأس لو مر عليها.

وتســربت الباصـــات تترى أمام ناظريه منفسخة ممتلئة بالـــركاب فذعـــر من منظرها وامتلأ خوفا من فكرة وجوده فيها. وضـــرب ببصـــره على طول الطريق فاصطدمت عيناه بكتلة من الشـــمس والغـــبار والضوضاء والالتماعات الغامضة التى تسبح وسط ذرات دقيقة. وقرر رغم ذلك أن يسير.

محـــل الأيـــس كريم الذى كثيرا ما ابتاعوا منه الأكواب المـــثلجة يلـــتهمونها فـــى المكتـــب، وكيف اتخدها وسيلة لتكريم عصـــمت وإيـــثارها بالعناية والرعاية . عنايته ورعايته هو وحده ولهـــا وحدها. ويوم أكلت نصف كوب الجيلاتى ثم أعطته لك أمام الـــزملاء لكـــى تكمله ، وناولتك ملعقتها فأكلت بها دون أن تمسح عنها رضابها، ونظراتها العارفة لك ونظرتك الفاهمة لها، ولا أحد يـــدرى بشـــىء. وتضـــحك عصمت وتقول لك أنك سوف تجرى وراءها طويلا، ولكنها ستبطئ من مشيتها حتى لا تتعب قلبك.

وتبسم سامى قليلا، وتثنت ركبتاه واهتزتا وهو يتذكر هذه الطرائف. ضجة وزحام وغبار وشمس. الوزارة التى تغير اسمها إلى المجلس الأعلى ثم أعيدت وزارة كما كانت. تغيير وتبديل بلا هـــدف ولا تخطـــيط ثم عودة إلى القديم. ثم مكتبة مجلدات سيرة الأمـــيرة ذات الهمة . ويوم ذهبت إلى تلك المكتبة وقابلت مديرها وأبدى تشجيعه لك على الاهتمام بالأدب الشعبى. آه لو كان يعرف لقـــد رددت علـــيه يومها بطريقتك الرسمية المقتضبة وأنت تبتسم

ولكـــن... آه لـــو كان يعرف. آه لو يعلم بأمر عبد السلام والأيام والليالى التى قضيتها معه تجوبان أطراف الصعيد الجوانى. كنت أيامها شابا متوقد الماس تضرب فى سنتك التاسعة عشرة، ملتهب الشـــعور فائض النشاط، وكان أكثر ما يشغلك أمور الأدب والفن والتقيت في الجامعة بعبد السلام فأقنعك أيامها بأن المستقبل للأدب الشـــعبى أو "الفولكلـــور"، وأعطـــاك كتبا ومجلات عن هذا العالم الخفـــى الذى لم تكن قد طرقته بعد. وألح على أذنيك فى تجوالات طويلـــة فـــى أروقة الجامعة وفى خارجها حتى أقنعك بأن تمضى معـــه الأجازة الصيفية ذلك العام فى الصعيد ، فى أسيوط وفى قنا وســـوهاج ، تجمعـــان الأغانى الشعبية والحكايات الفولكلورية من أفواه الناس البسطاء الفنانين بالفطرة والسليقة.

وكانـــت أياما غريبة جدا، قضيت فيها شطرا من حياتك تكتسب فنا وأحاسيس جديدة كانت هى وقود سنوات طويلة بعدها. كانـــت حصـــيلة تلـــك المغامرة كراسات عديدة مليئة بهذا التراث الغـــنى الـــثرى ، كلهـــا تـــرقد فى رفوف مكتبتى يعلوها الغبار تنـــتظر صـــحوة مفاجئة أعود إليها لأنفق معها أوقاتا اقتطعها من حـــياتى . وبعـــد أن وقـــف حماســـى لدراســـة الأدب الشـــعبى نتـــيجة اعـــتقال عبد السلام ودخوله السجن مدة طويلة بتهمة غير معـــروفة ، ظـــل هـــذا الجانـــب يمـــثل إغـــراء مســـتمرا لـــى بالبحـــث والتقصـــى والقـــراءة، فمـــا يكاد يظهر كتاب عن هذا الموضوع حتى أسارع باقتنائه وقراءته ثم أتمنى لو كنت أنا الذى كتبته.

مــرت هذه الخواطر فى ذهن سامى وهو يقف أمام نافذة المكتــبة ، يطــالع عناوين هذه الكتب الصفراء التى تحوى تراث الشــعب منذ عصوره القديمة. لم يكن ثمة جديد ، فهى نفس الكتب ونفس الأغلفة، وقد ابتاعها كلها منذ زمن.

ربما كنت قد توقفت لدى المكتبة كيما أحتمى لحظات من الشــمس. ولكنى والحق يقال أنجذب دائما ناحية أية نافذة تعرض كتــبا. فمــاذا يحدث حينما تكون فى شارع كله كتب. لاشك أننى أغــرق لأخمــص قدمى. يحدث ذلك فى سور الأزبكية ، أو فى الفجالة. وحين أكون مع سناء ونمر على مكتبة أنسل من جوارها لأقــف قلــيلا أمام المكتبة أتطلع إلى الأغلفة الساحرة. وفى مصر الجديــدة غالــبا حيث لا يرانا أحد. متى سنذهب مرة أخرى إلى هــناك يا ترى؟ وهل ستحضر اليوم فى موعدها أم تتركنى أنتظر فــيطول انتظارى؟ وماذا سترتدى ؟ وهل ستتعمد إغاظتى أم هل تضطر إلى مجاراتى فى مطالبى ؟ الحق أنك تزيدها معها كثيرا ، وتتــبارى وإياهــا فــى العناد والمكابرة . لقد بدأت هى الطريق وأكملــته أنــا فبلغــت به الغاية وتخطيتها فوصلت إلى التطرف المجــنون . فــتاة ســمراء مليئة أمامى أرى جسدها يتطوح إلى الأمــام. هل جربت حب السمراوات واهتمامهن؟ الشركة العربية للبترول . انتخابات مجلس الإدارة وللعمال نصف مقاعد المجلس.

وطلع سامى إلى منطقة تسطع فيها الشمس الحارقة على طــول مسافة طويلة . ونظر إلى الرصيف الآخر وقرر أن يعبر الطريق إليه.

عـــربات تتدافع فى سرعة ولا مبالاة . العربة الخضراء تمـــاثل عـــربة نجوى . ربما رأتنى وأنا أعبر الطريق وأهرول كالمجنون. الرصيف أخيرا والراحة والظلال. محل العصير الذى شاهدت فيه ذات مرة الفتاة التى كانت تتشاجر مع البائع ثم صفعته علـــى وجهه بيدها، وما تبع ذلك من شجار وخناق، وتتبعت يومها الفـــتاة حـــتى فزت منها ببعض الكلمات. ووعدتك أن تكلمك فى التليفون ولكنها لم تفعل ، ولم يبق لك إلا أن تنظر فى داخل المحل كلمـــا عبرت من أمامه لتتذكر ما حدث وتأسى على الفتاة . كانت رائعـــة حقا. كيف تطلب الوفاء من سناء وأنت نفسك غير مخلص لهـــا؟ الحق أقول لنفسى إننى أفعل هذه المغامرات الصغيرة حتى أسلى نفسى عن خيانتها وكذبها. قد يكون مجرد تعليل لتصرفاتك. وقـــد يكون حقا هو الحقيقة. سنرى ... كما يقول "توفيق". سأقابله فى الأصيل وأسمع آخر أخباره ونوادره . لماذا لا أكون مثله.

فتاحة العلب بشلن... شلن واحد فتاحة صلب وارد بره.. صـــرفوا الـــنهاردة العلاوات الجديدة ... والله يا أخى مش فاضى النهاردة ، لماذا لا نؤجل الميعاد لغد... ألا ترى أننى متعب جدا.. حســـنة لله يـــا بيه ... لقد كدت أضربه اليوم... بعد أن ذهب فى تحديـــه لـــى إلـــى حد كبير... وقد أشهدت عليه زملاءه رؤساء الأقسام... كلهم يتحدوننى... ولكن على من... إننى على استعداد لهزيمة المدير العام نفسه...

وأنـــا لمـــاذا لا أصـــبح مثل توفيق، عدميا كما نحب أن ندعـــوه. لا أحمـــل همـــا للدنيا، وأقابل كل شىء بلا مبالاة وعدم

اكــتراث. لمــاذا لا أدير وجهى لمن يتركنى ولا أحاول استرجاع الماضى وإرجاع المستحيل . لماذا لا اعترف بالهزيمة بكل بساطة وأواجــه الواقــع واعترف بمرارته ثم أتركه إلى غيره، إلى غيره مــن أشياء أستطيع أن أذوق حلاوتها. لماذا أغوص فى المرارة، وأتمــرغ فى رحاب الألم، كأننى سادى أستمرئ العذاب وأسر من الآلام . لمــاذا لا أكــون كتوفيق، أطلق عبارة "مش مهم" فى كل مناسبة وعند كل موقف.

محطــة الــتروللى بــاص التى أقابل عندها دائما نجيب أفــندى. الحمد لله أنه ليس هناك. ماذا يمكن أن أقول له، بل ماذا أمــامى أن أقول لأى شخص، خاصة فى هذه اللحظات التى أمر بهــا الآن. ليس لى إلا أن أعبر، "شفافا ولا ظل لى"، مغلق الفم، مفــتوح العينين على أوسع مدى ممكن، أرى وأظل صامتا، أجتر أفكارى وأعجز عن الكلام.

وعــبر سامى طريقا جانبيا ولاح له ميدان التحرير على مســافة قصــيرة . وتطلــع إلــيه وتبدى فى عينيه ذلك الانكسار البصــرى الذى اعتاده لدى رؤية الأماكن المنفسحة . ولاح أمامه رجــل مهيب الطلعة يحرك ساقه فى تثاقل هامد وقد مالت إحدى ســاقيه فــى التواء زائد فقد كان يعانى من شلل بها. وتعجب فى نفســه كيف يكون شعور هذا الرجل الذى نال من الوسامة والثراء الشــئ الكثــير، كما يستبين من مظهره، ثم يبتليه الله بمثل هذه المحنة. كيف يا ترى يعيش حياته. أله زوجة وأطفال؟ وماذا يشعر حيالهم، بل وماذا يشعرون هم نحوه؟ وحول سامى بصره عنه وقد امتلأ أسفا وقلقا.

وكان ثمة كناس يعمل بهمة فائقة فى إزاحة أكوام التراب من على الرصيف، ووجد سامى نفسه يلعنه سرا ، فلم يكن هذا بالوقت المناسب لإثارة هذا الغبار فى وجوه الناس، فى ساعة تزدحم فيها الطرقات وتغص بالمارة. وكان على وشك النزول من على الرصيف حين صادفت تلك اللحظة إلقاء الكناس بحفنة من التراب جانبا، وإذا به يرى إحدى الخنافس الضخمة ملقاة من شدة الدفعة التى أزاحتها بها المكنسة ، على ظهرها، وقد ارتفعت سيقانها تضرب الهواء القائظ فى يأس. واستبان أمام ناظريه بطنها الأملس الذى يلتمع فى وهج الشمس، وقد انقسم إلى عدة مربعات متساوية الحجم مقززة المنظر، تبعث فى النفس اشمئزازا وإحساسا بالملمس الخشن الجاف. ورفع سامى قدمه ذات الحذاء الرقيق ليتقدم فى خطواته ويهبط الرصيف. وكانت الخنفساء فى مرمى قدمه.

الحذاء يلمع . طبيعى فقد مر عم صبحى أمس ولم يفقد لمعته بعد. والشراب الجديد الذى دفعت فيه خمسة وسبعين قرشا. لقد لاحظته سلمى وباركت لى على شرائه. دقيقة الملاحظة. الخنفساء السوداء. عاجزة مثلى. لا تستحق الحياة . فلتنسحق. لأرى هل ستنفجر ويكون لها صوت لذيذ مثل صوت انفجار الحبات المتساقطة من الأشجار المتراصة على جانبى كورنيش النيل.. تسلية مماثلة تماما. تموت . كولردج . ماذا قال. الدكتور "رفيق" بمسبحته وفنجان قهوته. ماذا قال كولردج. ماذا قال.

الملاح الهرم قصيدة رائعة . ماذا فعلت بترجمتها العربية؟ لابد أن تكملها وتحاول نشرها . ضيف حفل الزواج. و... و...

He Prayeth Well, Who loves Well
Both man and bird and beast
He Prayeth best, Who, loves best
All things both great and small,
For the dear God who loves us,
He made and loves all .(*)

آه يا إلهى ، يا للخطأ الذى كنت سأرتكبه!

كانت قدمه قد أوشكت أن تطبق على الخنفساء وربما قد مست أقدامها اليائسة فعلا ، لولا أنه بذل مجهودا غير عادى لتفاديها فى لحظة خاطفة سريعة. وتفاداها وتركها وراءه وهو يدعو فى نفسه أن يعاجلها الكناس بدفعة أخرى تعيدها إلى وضعها الطبيعى فتتمكن من الفرار إلى ركن آمن. وعاودت القصيدة ذاكرته، وكيف أدى امتحان الشعر الإنجليزى فى السنة الثالثة فى هذه القصيدة الأثيرة إلى نفسه، وكيف تلا أمام الممتحن هذه

(*) "أقربنا إلى الله من ملأ الحب فؤاده.. حب الإنسان والطير والحيوان.. وأكثرنا قربا إلى الله من ملأ الحب فؤاده.. حب كل شىء، عظيما كان أم حقيرا .. فالله العزيز الذى يحبنا جميعا قد خلق كل شىء، ويحب كل شىء" أنشودة الملاح الهرم لكولردج.

الأبـيات الـتى يحفظها منذ ذلك الوقت تماما وتعيها ذاكرته وعيا دقـيقا، وقـدم شرحه الخاص لها مما أثار إعجاب الدكتور رفيق فأعطـاه تقديـر ممتاز، وكانت أول مرة ينال فيها هذا التقدير فى امـتحان شفوى. ولذلك لم تكن هذه الحادثة لتغيب عن باله . ولم يكـن يـدرى لماذا كان يحب هذه القصيدة بالذات وهذه السطور بوجه أخص. طالما عجب من ذلك ، وحاول أن يغوص فى قرارة نفسـه لكى يعرف السبب الذى يجعل فؤاده يحنو على تلك المعانى وقلبه يهفو وراءها ، فقد كان يستشعر وهو يرددها بشعور غريب هـو مـزيج من تأنيب الضمير والراحة ، وكان يرى نفسه وهو يـتلوها يقـف أمام باب سحرى غامض مهول يحاول أن يطرقه ويفـتحه بلا جدوى. ولم ينفتح هذا الباب إلا فى هذه اللحظة. وفى هـذه اللحظـة بـالذات ! وبعد مرور ثمان سنوات على دراسته للقصـيدة. واهـتزت مشـاعره فى عنف شديد واختلجت تنتفض وتحـاول أن تهيـب بالنفس أن تكتم تلك الأفكار والذكريات التى تجـاهد للانـبجاس إلى عالم الشعور من عالم اللاشعور. وانثالت الذكـرى... ورأى سـامى نفسه حين كان فى الرابعة عشرة من عمره. كان أيامها مع أسرته حين كان والده يعمل فى بنى سويف، وكانت لهم حديقة كبيرة ملحقة بالمنزل الذى يسكنونه.

كـان الصـيف قد حل أخيرا بعد طول انتظار، وجاءت الأجـازة بعـد الـنجاح المعهـود. ومن جراء الخوف من الملل والابـتعاد عنه، كان هو ورفاقه من الصبية ومن إخوته، يبحثون عن المزيد من المغامرات يشغلون بها وقتهم. وجاء رشاد صديقهم

ومعـــه بندقية الرش للانطلاق فى غزوة صيد جديدة . وكان الجو يوحى بصيد وفير، فمحاصيل الحقول التى تجاور حديقتهم عامرة بالغلة والثمار التى تغرى العصافير والحمام واليمام بالحط والبقاء فـتكون هدفـا سهلا لهؤلاء الصبية الأشقياء. وانطلقت الحملة من الصغار الأبرياء يضربون فى أنحاء الحقول. ومر بهم الوقت ولا صــيد هــناك، فقد لاحقهم الفشل رغم وفرة الفرص. وكان سوء حــظ، أو هــو قــدر مرصود. وانتحى سامى الصغير برفيق له يلازمـــه وانطلقـا وحدهما فى حقل مرصع بعيدان الفول الحراتى الجميل الشديد الاخضرار، وخاضا فيه يستروحان عيدانه ويقطفان الــثمر اللدن الذى يكاد يضج ويتفجر. وبعد أن ملآ جيوبهما منه، رمى سامى بطرف عينه فوجد طائر أبى قردان مقعيا على جانب من الجوانب التى يقع فيها حقل الفول وتدافعت فى نفسه عواطف الرضــا الــذى حــازه من الحصول على ثمرات الفول الحراتى والجلســة المرتقــبة على شاطئ الترعة بينما العينان تتريان على كــتاب لطــه حسين، مع عواطف الفشل الذريع الذى منى به مع رفاقــه فــى الصــيد، فــرفع ذراعه وصوب البندقية إلى الطائر المســكين وأطلق الزناد. وارتبط صوت الطلقة بصورة أبى قردان أن انفتحــت عيــناه بشدة بعد أن استقر الرش فى ساقه فقفز قفزة مباغــتة مــن شــدة المفاجأة ثم سقط على بعد ياردات من مكانه الأول. واندفــع ســامى فى نشوة من النصر إلى الطائر المسكين مهلــلا وقــد رفع البندقية عاليا فى يده، وانقض على أبى قردان يمســك به، بينما الطائر يرف ويهف بجناحيه وجسمه وكل عضلة

سليمة فى جسمه لكى يفلت من هذا القدر الذى ترصده وأوقع به بمثل هذه الصورة الشائهة . ولحق الرفيق الصغير بسامى يساعده فى الإمساك جيدا بهذا الصيد الثمين.

- إنه أبو قردان. اتعلم أنه محرم صيده؟
- محرم ؟ من قال هذا؟
- سمعت ذلك من الفلاحين، كما قرأته فى كتاب الطبيعة.
- ولا يهمك. سنطلقه بعد ذلك.

ولكن هذا الإطلاق لم يحدث بعد ذلك ولا فى أى وقت آخر. فقد اجتمعت شلة الصبية حول سامى مهللين فرحين. وتدافع الجميع ليفحصوا ذلك الطائر الذى لم يره أحد عن قرب، بل رأوه فقط فى الكتب المدرسية وعلى قمم الأشجار وعلى مبعدة فى الحقول. ثم جاء دور الاقتراحات فيم يجب أن يفعلوا به. واقترح صبى أن يطلقوا سراحه وكفاه ما حدث له ، كما اقترح آخر أن يضمدوا له جرح ساقه وأن يستخرجوا الرش منه، وتطوع أن يقوم بهذه العملية. ولكن أياً من تلك الاقتراحات لم يحظ بقبوله ، باعتباره "صاحب" الطائر وصائده والمتصرف الوحيد فى مصيره. وتأجل البحث هنيهات ، فربط القوم الطائر بخيط طويل متين كان سامى يمسك بطرفه ثم ربطه أخيرا إلى إحدى الشجيرات القائمة على الترعة. كانت فترة الظهيرة ، وقد عاد بعض الأصدقاء إلى منازلهم لتناول الغداء، وبقى سامى وحده مع رفيقه الصغير وقد استلقيا على ضفة الترعة وأمامهما الطائر الحبيس. كان سامى يرقد على ظهره ويدفع بحبات الفول الحراتى إلى فمه، بينما تقع

عيناه على أبى قردان وهو يجاهد ليفلت من الخيط ويهدهد جرحه بجناحـــيه وبرأسه أحيانا، ولم يكن ذلك ليحرك شيئا فى سامى ولا فـــى رفيقه. بل ربما كانا قد نسيا كل شىء عنه إلا مظهر التسلية فى محاولاته للهرب والفشل فى ذلك، وهما وحدهما يوقنان أن لا أمـــل فى نجاته ولا سبيل إلى الفكاك من أسرهما. وتمت المذبحة عند الأصيل.

كان الأولاد كلهم قد تجمعوا ثانية . وكاد سامى أن ينسى الطائـــر المســـكين ، حتى نبههم أحد الشياطين الصغار باستفساره عمـــا ســـيفعلون بأبى قردان قبل الشروع فى مباريات كرة القدم. كانت فترة الصيد المخصصة لها الصباحات قد انتهت وأقبلت فترة كـــرة القـــدم ومبارياتها. وتذكر سامى الموضوع. وبدون تفكير ، وبـــدون أن يكـــون ذلك قد خطر له من قبل ، نهض إلى الشجرة الـــتى ربـــط إلـــيها أبـــو قردان عما ينوى أن يفعل، وهو يبتسم ويدعوهـــم إلى انتظار ما سيرون. ودلف سامى إلى حديقة منزلهم يتبعه الرهط، واختار شجرة عالية من أشجار المشمش، لها غصن يهـــبط فـــى وضع أفقى قريب، فربط فيه الطائر المسكين بطريقة جعلـــت جسده يتدلى فى الهواء فى وضع مقلوب، فرأسه ومنقاره إلـــى أســـفل ورجلاه إلى أعلى قد ربط فيهما الخيط إلى الشجرة. ووقـــف ســـامى علـــى بعـــد قريب من أبى قردان ورفع البندقية وصـــوبها إليه فى أحكام . كان الجسد الطائر أبيض ناصعا، يهتز ريشه فى وجل الجراح والموت، بينما قطرات من الدماء قد انثالت علـــى هـــذه النصاعة وتجمدت على الريش البللورى . ولم يرتفع

صــوت واحد يستنكر ذلك، بل هلل الصبية وتدافعوا للرؤية وكل واحــد يطلــب دوره فــى هــذه اللعبة المرحة. وانطلق "الرش" كالقذائف ليستقر فى جسد الطائر المسكين الذى كان يهتز ويرجف مــع كــل إصابة من إصابات هذه القذائف الدقيقة المميتة. وتتابع الصــبية علــى البندقــية وكل منهم يتبارى فى إصابة هذه الجثة المــزهقة المحتضــرة الــروح التى لوثت طهارتها البيضاء نقاط الدمــاء التى كانت تسيل من الطائر إلى الأرض الترابية فلا تكاد تســقط عليها حتى تختفى فى باطنها. وبعد أن تمت هذه المجزرة الدامــية ، وبعد أن همد الجسد بعد أن خرجت الروح منه، لم يعد للصــبية من تسلية فيه، فتقدم سامى وحل وثاق هذه الضحية وهو يحــاذر أن تمســها يداه، ثم ألقاها وسط حقول الفول الحراتى فى الحقل المجاور، وعاد سريعا لينضم إلى فريق كرة القدم.

لــم يكن ذلك يعنى أى شىء بالنسبة لسامى آنذاك، وربما طويلا بعد وقوع تلك الحادثة. ولكن التجارب التى مر بها بعد ذلك علــى طــول الســنوات الــتى تلت ، وما قاساه من عنف النبض البشرى فى حياته وفى تجاربه قد بعث تلك الذكرى ، أليمة جافية، مــن بيــن ثــنايا النسيان . بعثها حين أدرك القلب البشرى مدى بشاعتها، بعد أن رق القلب واستوى الفكر ونضج الإحساس، وكان هــذا سبب الوجيف الغامض لدى قراءة أبيات القصيدة التى تدعو إلى رحمة الحيوان كالإنسان على السواء.

أفــاق ســامى عــند هــذا الحد فإذا هو مستند إلى جدار الجامعــة الأمريكية الحديدى. كيف عبر الميدان المزدحم دون أن

يشعر؟ كيف جاء إلى هذا المكان وهو مستغرق فى الفكر ليستعيد ذلــك الحدث الذى لم ينبجس فى عقله الواعى إلا فى تلك اللحظة؟ وجــد العــرق يغطى وجهه تماما، ويديه ترتجفان فى تأثر بالغ. وكــان يجــب أن يبقى فى مكانه هذا فترة من الوقت يستعيد فيها هدوءه ويعود إلى حقائق الحياة اليومية التى يحياها، قبل أن يسير إلــى الغاية التى أتى من أجلها. وجر قدميه إلى الأمام وهو يعجب مــن هــذه الظروف التى جعلته يتذكر هذا الحادث أخيراً ويدرك ملابســاته، ويعد نفسه بتحليل رائع له بعد ذلك فى هدأة الليل قبل أن يــنام، وربمــا كتــب قصـــة حول هذا الموضوع، فما أشبهه بالقصص التى تعتمد على التحليل النفسى التى يقرأها فى المجلات الإنجلــيزية الخاصة بعلم النفس. إنما يجب عليه أن يقرأ أكثر فى مؤلفــات فــرويد وأدلر ويونج. لقد استعار صديقه "شاهر" كتاب محاضرات فى التحليل النفسى ولم يعده، وهو الآن فى الكويت ولا ســبيل إلى استعادة الكتاب منه فى الوقت الحاضر، عليه اللعنة ، يذهــب هــو ويتزوج ويجمع المال ثم يعطلك عن قراءة هذا الأثر الهــام. لا يهم وأنت أيضا مستقبلك هنا يبشر بالازدهار، فها أنت لديك أكثر من مشروع للدراسة، وأكثر من مشروع أدبى تعمل فيه فعلا.

ووصــل سامى إلى الباب الرئيسى للجامعة الأمريكية ، ورأى الــبواب الأسمر الذى كان يمثل له دائما سلطة على الطبقة المــثقفة التى تتمتع بأقصى حد من الحرية. لقد جاء كثيرا إلى هذا المكان، وحده أحيانا، وأحيانا مع زميله الجرىء مجدى، ولكنه لم

يشعر بمثل هذه الرهبة والتحميل بالمدلولات التى يشعر بها الآن، فهـو الـيوم فـى طـريقه إلى اقتحام هذا الستر الغامض الملىء بـالانطلاق والفتـيات الجميلات ، اقتحامه اقتحاما أبديا يخلو من اللاوقتية عدوة كل شىء. كان يتوقع أن يسأله عم رضوان الأسمر اللـون عـن سبب دخوله إلى الجامعة . هذا الحارس الأمين الذى يعـرف كـل مـن يدخل وكل من يخرج من هذا الحرم الجامعى الغريـب. كان يشم رائحة الغريب، ولابد لكل غريب أن يعرض عليه سبب دخوله، ولابد أن يقتنع عم رضوان بذلك السبب. وكان السبب الذى يقدمه سامى يختلف باختلاف الزمن. فقديما، حين كان يـأتى مـع مجـدى للتطلع إلى هذا الجو الغريب ولمشاهدة أنواع الجمـال الذى تتميز به حوريات ذلك الحرم، كان يجيب على عم رضوان بأنهما ذاهبان إلى مكتبة الكلية. وكان ذلك العذر لا يخب أبـدا، فقد كان سامى ومجدى أيامها يدرسان الإنجليزية أيضا إلى جانب الفرنسية ، ولذا كانا فى حاجة إلى مكتبة الجامعة الأمريكية حاجـتهما إلـى مكتبة جامعتهما. وكانا يعرفان الدخول إلى مكتبة جامعـتهما ومكتـبة كليتهما ومكتبة قسمهما وراء عيون خضراء حالمة ، أو وراء وجه من الوجوه التى ترمى بهما فى دوامة الحلم والخـيال. فقامـا بتطبـيق تلـك الطـريقة للدخول إلى الجامعة الأمريكية. وبعد ذلك ، حين عمل سامى بالوزارة ، كان يدخل إلى الجامعة بوصفه موظفا بالوزارة. وحين أعلنت الجامعة الأمريكية عن قبول دفعة جديدة لدراسة الماجستير فى فرع الآداب المقارنة، أسرع بتقديم أوراقه ابتغاء الانتساب لهذه الجنة التى ستمنحه المادة

والروح، الجسد والنفس، المبنى والمعنى معا! كانت الجامعة الأمريكية بالنسبة له هى قوس قزح الذى بشر به الداهية لورانس، تمضى حياته يبحث عنه ويدعو إليه فى ذات الوقت. ولقد تردد على هذه الجنة كثيرا فى الأيام الماضية، من أجل استيفاء الأوراق ثم للامتحان. وقد أدى الامتحان بجدارة ، فقد كان الموضوع من بين الموضوعات المحببة إلى فؤاده، تعليق على قصيدة شعر، وقد أجاب إجابة ضافية استدعت أن يستخدم كراسة إضافية، وإن كان يشعر بأنه قد أخطأ بإسهابه ذاك، إذ تطرق فى التعليق إلى موضوعات خارجة عن الموضوع الأصلى المطلوب. وكان فى زياراته الأخيرة يرد على الحارس العتيق الذى يهتف به وهو داخل: "إلى أين يا أستاذ؟" بكلمتين اثنتين لا ثالث لهما: "الدراسات العليا". وكان ينطقهما بتؤدة وشموخ يتفقان مع الموضوع الذى يرمزان إليه، ولم يكن يقف فى انتظار عم رضوان بل ينطلق من فوره إلى المكان الذى عرفه وخبره.

وكان يتعجل اليوم الذى تظهر فيه نتيجة الامتحان حتى يستطيع أن يلتحق بالدراسة المنتظمة، ويتردد كل يوم على الكلية وبوفيه الجامعة وحدائقها الغناء على وجه الخصوص، وحتى يعترف به البواب ويحييه كل يوم بدلا من أن يسأله السؤال المعهود. وكان من المقرر أن تظهر النتيجة أول أمس ولكنها تأجلت بضعة أيام، على أن تبدأ الدراسة بعد أيام قليلة من ظهور النتيجة.

وشـــق طريقه إلى قسم الدراسات العليا، وكان قريبا من دار الدخـــول . وســـار عبر الردهة الساكنة المظلمة التى يغطى أرضـــيتها السجاد السميك، وفتح الباب الواطئ الدوار الذى يفصل القســـم عن بقية الأقسام، وتركه يصطفق وراءه فى هدوء. كانت حجـــرة الســـكرتيرة مغلقة الباب، بينما تجمع أمامها بعض الطلبة والطالـــبات. ووقف سامى وسطهم ، وعلم من الحديث الذى كان يـــدور بيـــنهم أن الســـكرتيرة لم تحضر بعد وأنهم فى انتظارها ليعرفوا النتيجة . كان المستوى رائعا ، يشى بالمتعة التى سيجدها فـــى الدراسة وسط هؤلاء الشبان والفتيات ، الذين تخرج معظمهم مـــن المـــدارس الأجنبية. وخرج ليجول وسط الجنة إلى أن تعود الســـكرتيرة . خرج من مبنى القسم ، ودار إلى الخلف قليلا فخرج إلـــى حديثة الجامعة الخضراء . كانت ثمة مقاعد قليلة تنتثر فيها هـــنا وهناك انتثارا هادئا أنيقا ، وعلى كل مقعد تجلس حورية من حوريـــات هذه الجنان . وتنقلت عيناه تنقلا عميقا من هذه الحسناء إلى تلك ، فى هدوء وروية ، إذ هو ينقل خطاه متثاقلا.

حورية بيضاء مشربة بالإحمرار الوردى ، زانتها الثياب جمـــالا، لها ذلك الذوق الرفيع الذى تتميز به ساكنات هذه الجنة، ذلـــك الـــذوق "الباريســـى" فى اختيار الملابس وحذق المزج بين ألوانها. البلوزة المشجرة الفزدقية المصطنعة من القطن والساتان، وجيـــبة فى لون الحشائش، وحزام عريض حديث تتوسطه "توكة" نحاســـية بيضـــاء عريضة . والجيبة قد انحسرت فى عفوية عن أعـــالى الساقين فبدت وردية شفافة تبين العروق الخضراء اللاهية

مــن ورائها . وتلك الحورية الأخرى التى تضارعها جمالا وفتنة وشــفافية هكذا حور الجنان يا سامى. وزوجناهم بحور عين . أين أنـــت يا ابن القارح ويا أبا العلاء، لو طفتما هنا لجادت قريحتكما بأثمــن مـــن رســـالة الغفران ، ولوجدتما هنا عزاء عن أحمد بن الحســين وزهــير بــن أبى سلمى وغيرهما من ندامى الفردوس، فستجدان هنا جمالا يفوق كل جمال المتع الأرضية التى قد تجدانها فـــى أنحـــاء أخـــرى مـــن بقاع أرض "بردى" أو متعها الجمالية والذهنـــية الخالصة. الحوريات على الحشائش الخضراء الزاهرة الطويلة يجلسن فى أوضاع مماثلة للأوضاع التى استلهمها رفاييل وميخائـــيل أنجلـــو ورفاقهما حين رسموا إبداعات عصر النهضة الأوروبـــية. أيـــن أنت يا دانتى؟ لو كنت هنا الآن لما كانت هناك حاجة بك لأن تستوحى الهامات الغفران وشطحات المعرى ودقائق صـــوره واستشـــهاداته، بل لكنت واجدا هنا بياتريس حبيبتك وقد ارتدت المينى جيب ورطنت بالعربية وجلست على حشائش حدائق الجامعة الأمريكية.

يا لهذه العيون من كل لون وشكل، خضراء كعينى شريفة تمامـــا، وســـوداء ، وبندقـــية اللون، "هيزل" ، والقامات الرشيقة والأعـــناق الـــتلعاء والخصلات التى غطت الموضات من عصر الكهـــوف حتى عصر فرح ديبا وجاكى. كل حورية منهن حولها ندماؤهـــا. تـــرى فيم يتحدثون . يضحكون ويبتسمون ويتراشقون بالآهات. رطانات بالعربية والإنجليزية والفرنسية ولغات أخرى لا تدرى عنها شيئا. وفوق كل شىء لغة الحب، لغة القلوب المباشرة

الــتى لا تعــرف الصد والتمنع. وجماعات تقرأ... ماذا يا ترى؟ فلأقترب لأسمع وأرى. لا أحد يأبه لاقترابك ولا لتصنتك رغم ما يســتبين لــك أنه لا يليق. آه... أنها قطعة من "هاملت". ياه... لقد مزج هذا الفردوس حقا بين كل النعم، ولطالما صبوت إلى هذا يا أبــا الأســامى، درر الروح والجسد، درر الجمال المعنوى الذائب المتمثل فى إبداع صناعة الجسد بكل تفصيلاته. لطالما رددت هذه القطعة فى قيامى وقعودى ، الموت أم الحياة ، تلك هى المعضلة . معضــلة لا حل لها. النوم والأحلام واليقظة، وفرويد وآلام الحب ووخــز الضمير. لو قرأت سناء هذه القطعة معك وفهمت معانيها لرقــت إحساساتها ودقت ولفهمتك حق الفهم وتجاوبت معك، فهذا هــو تأثير الفن فى النفوس ، يطوف عليها فيجعلها غير ما كانت ويغــرس فــيها من وحيه وإحساساته ما يجعل منها نفوس ملائكة أطهــار. هــذا طبعا هو سر السحر الذى يرين على هذه الجماعة الجمــيلة الــتى تناقش "هاملت"، هذا سر أمير المترددين، بل أمير الأشــرار الــذى يحمل بذرة الشر فى نفسه فيحيل هدوء الآخرين ثــورة واطمئنانهم جحيما. هل يا ترى تعرضوا لنظرية ذلك العالم النفســانى الذى أرجع كل آلام هاملت إلى عقدة أوديب الدفينة بين ضــلوعه؟ آه يــا سامى، حين تنضم إلى مثل هذه الجماعة سوف تأخذ حقك كاملا من كل شىء، وتقطف من هذا المجال ومن ذاك، وتفيض على هؤلاء الحسان مما تعلم ومما تقرأ ومما يختزن عقلك مــن أمــور تجلــب الخلــود وتغير من وجه الأشياء على ظهر البسيطة.

واستلقى على الحشائش الندية ، يستقبل هذا الفيض الفجائى من الرؤية الغامرة والسعيدة. وتطلع بعينيه إلى ماحوله من جماعات يظللها الشباب والمرح وتفيض منها الحيوية والحرية. كل هذا أصبح قيد خطوات منه، بل قيد ساعات. الفتيات فى الثياب التى حملت كل لون، والألوان الأصلية الغريبة التى طالما سحرته ، كانت هناك بلا رقيب أو حساب. وبدا الذوق والانسجام والهارمونية ، التى كانت نادرة الوجود فى أى مكان، مبذولة على الدوام ، طابعا أصيلا سائدا فى هذا الجو الغريب. وشملته دوامة من النفحات والإلهامات أحاطت بفؤاده وضربت بأستارها على عينيه وأفعمت خياله فلم تترك له منفذا من واقع الإحساس . ورأى الولدان يطوفون بالصحاف وعليها من كل مذاق أطيبه ومن كل مشرب أحسنه . رآهم يحملون للجماعات المتسامرة ما يطلبون من المقصف، فى أباريق فضية منمقة ، وأكواب بللورية تشف وترق حتى لكأنها نور أذيبت فى جوفه المشاريب. وكان السقاة يرتدون ملابس نظيفة منسقة ذات نظام واحد جميل، ويعاملون زبائنهم من الطلبة والطالبات وكأنما يعاملون سكان الجنة، الذين استحقوها عن جدارة بما بذلوه فى الحياة الدنيا من أعمال صالحة وبما أظهروه من نوايا طيبة . وكان الساقى منهم يقف فى تبجيل أمام الفتاة الحوراء وينحنى لها ثم ينزع زجاجة الكوكاكولا ويميل بجذعه وهو يصب صهباءها فى الكوب حتى يترع بها، مخلفا وراءه على صفحة الكوب الرغوة البنية المنعشة للنفوس وهى تطق وتئز وتدعو الشارب إلى

أن ينهل منها قبل أن تنطفئ ثورتها ويخمد لهيبها. وكان سامى فى مكمنه هذا يحكم منظرا فريدا لهؤلاء الحوريات وفتياتهن والولدان الذين يقومون على خدمتهم . وكان الكتب تنفتح وتنغلق والبسمات تتســع وتنقبض ، والضحكات تصلصل ثم تخفت رويدا ويدا. وقام يــنفض عــن نفســه أغــلال السحر، يتمشى عبر هذا الفردوس المستعاد. وجال فى حدائق الجامعة الغناء، التى يقوم على خدمتها أكــثر من خمسة بستانيين، ورأى أشجار الموز بأوراقها العريضة شــديدة الاخضــرار، وثمارها النضيدة لما تنضج بعد، قد رصت أســبطة أسبطة على جوانب جذعها الثخين . كانت أشجار الموز تنتشر هنا وهناك فى كثرة تلفت الأنظار.

ربمــا كانــت هى الشجرة القومية فى أمريكا، وقد جلبوا بذرتهــا إلــى هذه البقعة الأمريكية. هذا مؤكد لأن الثمار لا تشبه الثمار التى نأكلها هنا فى مصر. المهم أنها شجرة جميلة جدا، ولا أدرى لماذا لا يتغنى بها الشعراء. انهم يتغنون بأشجار الصفصاف واللبلاب والأرز والحور، بل وأشجار الشربين ، ثم لا تنال شجرة المــوز حظها من التكريم الفنى. ربما كان يكثر ذكرها فى الأدب الأمريكى، ولكن لا شىء يحضرنى عنها الآن رغم كثرة قراءاتى فى شعر هذه البلاد القصية. "فروست" وصاحب "أوراق العشب". إنى أغنى نفسى، أنشد نفسى، أصدح نفسى...

الأزهار والورود حولى فى كل مكان. ويعبق الجو بشذى هــو أقــرب لشذى حديقة شارع إسماعيل أبو الفتوح. الدراسة فى

هــذا المكــان جميلة وتساعد على استيعاب الدروس، وكل شيء ميسر. هذا هو المقصف. فلأدخل لأرى.

وانفتح الباب المغلق ودخل سامي، وفاجأة أول شيء الجو الــذى رآه امامه. هاجمت أنفه رائحة غريبة هى مزيج من دخان الســجائر مع عطور غريبة قصية . ومضت برهات قبل أن يتبين الموجودات فى هذا المكان السحرى . كان أشبه بكهف من كهوف الوجوديــن الأوائل ، زرافات مبثوثة هنا وهناك ، مثنى مثنى، أو ثــلاث ورباع، لا تزيد على ذلك، وبوفيه أشبه بالبار الخصوصى وراءه اثــنان أو ثلاثــة ســقاه، يناولون الراغبين ما يريدون من مشــروبات وحلــوى وغيرها من المأكولات والمسقعات . وكان دخان السجائر منعقدا فى كل أرجاء المكان، ويتخلل كل ركن من أركــان المقصــف الضيق. ووقف سامى حائرا وسط الطاولات المتــناثرة، لا أحــد يشعر به وهو يشعر بكل دقيقة من دقائق ما يحــدث أمامه. وضرب ببصره فيما وراء سحائب الدخان، وتقدم إلى المقصف يطلب قطعة من الأيس كريم. وأخذها ثم انزوى إلى إحدى الطاولات الفردية يرقب ما يجرى ويحاول أن يتصرف فى طبيعية يلزمه بها شعوره بانتمائه الوشيك إلى هذا العالم . وكانت الســجائر لا تكاد تفارق شفاه الموجودين ، من فتيات وفتية، وكان إشــعال ســيجارة جديــدة فرصة لهم لإخراج ولاعات الرونسون الذهبــية الحديــثة ، وتكلف الأهمية والاشنغال الشديدين فى لحظة اشــعالها. وتنسم عبير الدخان رغما عنه، وكانت له رائحة غريبة غــير مألوفة، وكذلك كان لونه ليس بالعادى على الإطلاق. وأخذ

يرقبه إذ يصعد من الأفواه الفاغرة متماوجا ملتفا كخيوط السحرة وأفاعيهم ، ثم يشتبك بالخيوط الأخرى فتتكون منها السحب الدخانية التى تأخذ بخناق الضوء فتذيبه فى سمرتها وظلمتها. وسرعان ما أدرك سر هذه الرائحة والألوان الغريبة، فقد رأى أحد الشبان يخرج سيجارة من علبته اللجينية ويدس فيها شيئا بطريقة سريعة لم يلحظها أحد، ثم يشرع فى إشعالها بنفس الطريقة العصبية. وهاله الأمر، وجلس يفكر ماذا يكون هذا الذى دسه فيها، وهل يا ترى يكون من الأنواع الرديئة التى يسمع عنها، أم هو فعلا ذلك الذى سمع عنه كثيرا وكان يحلم برؤيته ليس إلا ؟ أهو الماريجوانا أم ل. س. د؟ لقد قرأ أن جماعة من الشبان قد تعاطوا هذا الأخير وفتحوا جهاز التسجيل ليروا ماذا سيكون تأثيره عليهم، وقد ألقى أحدهم بنفسه من الطابق الثالث بعد أن تخيل نفسه طائرا ذا جناحين . آه ، هذا هو العقار الذى تناولته جماعة الخنافس وكتبوا تحت تأثيره أغنيتهم الشهيرة "لوسى فى السماء مع الدرر". وكان العنوان منسجما مع حروف ل. س. د. لوسى، سماء، درر. من فسرها لك وحكاها، آه، توفيق ، ذلك المهووس بالموسيقى الغربية الحديثة. ومع تذكر سامى للموسيقى والألحان، انبعث الغناء الصاخب من جهاز للتسجيل فى جانب من جوانب المقصف، ويبدو أنه كان فى فترة راحة حين دخل سامى. ومع ارتفاع أنغام "الروك آند رول" انبعثت حمى عنيفة فى أوصال الموجودين ، فانطلق بعضهم يهمهم مع اللحن والآخر يهز قدميه ، وذاك يفرقع بأصابعه فى جد وانفعال. ولو لم يكن الوقت صباحا

والدراســة مســتمرة لا نقلب المقصف إلى حلبة رقص. وانغمر ســامى فــى هــذا الصخب والعنف وضاعت كل فكرة من رأسه وذاب تفكــيره مع الجو من حوله . غرباء فى الليل . لحن رائع . لحــن الموســم الذى يتردد صباح مساء فى البرنامج الأوروبى . أجــل، لســوف يأتى إلى هنا كل يوم، ولسوف يحضر معه أحيانا سناء لتشاركه هذا الجو المنطلق، وربما أمكنه فى أوقات الظهيرة أن يخــتلى بهــا هــنا أو هناك فينال من رحيق شفتيها ما تمنحه الأماكــن المنغلقة على نفسها. أجل، أجل، هذه هى خطته . يجب أن يخــتلى بهــا تمامــا، فى أوقات غير أوقات الدراسة، حتى لا تشــاهده معهــا صــديقاته من الفتيات اللاتى لابد سيعرفهن إبان الدراســة . أجــل، أجل، لسوف يفعل كل هذا وينال حظه من كل شىء ويغزو كل الأجواء ويعرف أسرار الحياة.

ونهض قبل أن تسرى حمى الانفعال إلى أوصاله . وتعمد أن يدفــع بقشيشــا ســخيا للجرسون الواقف أمام البار حتى يؤكد انــتماءه للمقصــف ولزبائن المقصف، وحتى يعرفه الحاضرون فيسهل ذلك حضوره فيما بعد مع سناء. وفتح الباب يستقبل الهواء الــنقى ، وأغلقه وراءه بسرعة حتى لا يفسد روعة الجو الداخلى. ومشــى بمحــاذاة البوفــيه فخرج إلى الملاعب الرياضية التابعة للجامعــة. ووجد جمعا يثير نقعا فى الهواء، وإذا بمبارة حامية فى كــرة السلة تجرى وقائعها أمامه. كان الملعب فسيحا أنيقا قد انتثر على أرضه التراب الأحمر الصقيل وزانت حوافه خطوط الرمال الرطيــبة الصــفراء. وكــان مشهدا من مشاهد الجنان حقا. انتثر

الفتـيان بملابسـهم الرياضـية البيضاء الناصعة، أما الفتيات فقد انتصـبن فـى الشـورتات الملونـة بالألوان الزاهية، والبلوزات الرياضـية المخططـة بالأحمـر والأخضر وغيرهما من ألوان الطـيف. وكانت الشورتات التى يرتدينها تكشف عن سيقان علوية ناصـعة كأنهـا قوالـب من لجين صب صبا ليخرج أنموذجا من نمـاذج الجمـال الرصـين الفاغم. وكن يتواثبن هنا وهناك وراء الكـرة، منحنـيات قائمات، رائحات غاديات. وتخيل سامى نفسه يراقب مشهد "ناوسيكا" وهى تلعب بالكرة مع أترابها قبل أن تعثر على جسد "عولس" وقد قذفه البحر إلى جزيرتهن.

واقـترب سـامى من الملعب، ووقف إلى جوار الزملاء والزمـيلات الذين يشجعون الفريقين بصياحهم ونصائحهم. وتدافع اللاعـبون واللاعبات ، وخرجت الكرة مرة واستقرت عند قدمى سامى، فالتقطها بيده محرجا. وإذا بحورية من الحوريات اللاعبات تجرى لاهثة نحوه وهى تمد يدها وتبتسم ابتسامة لا تشبه فى شىء ابتسـامات بنات هذه الأرض، وكان المجهود الذى بذلته وحرارة الجـو النسـبية قـد نالتا منها كل منال، فاقتدت وجنتاها واحمرتا وسـرت فـيهما نيران اللهيب، حتى إذا ما رفع سامى عينيه إليها ليعطـيها الكرة ، اصطدمت عيناه بهذه الحمرة الجمرية تتوسطها لؤلؤتـان خضـراوان دكـناوتان يظللهما عرش من أهداب كثيفة وشفاة قرمزية كريزية، فتجمد سامى مبهورا بهذا كله، بينما الفتاة تخطف الكرة من بين يديه وتشكره فى لغة سماوية زئبقية سحرية، وهو مسمر لا يحير جوابا ولا حراكا بعد أن مست يد الحورية يده

فأحالتها قطعة من نيران الفردوس من فرط ما بعثته فيها من حرارة ومن وجد ومن حب فى آن واحد.

ووجد نفسه فى وسط جماعة من طلاب الجامعة يتناقشون فى المباراة. وبقى صامتا لا يشاركهم شيئا، يستمع ولا يتكلم. وانسل من الجماعة فى بطء وعيناه مركزتان على اللعب، والأهداف تترى والكرة تخبط السلة مرارا وتكرارا، والثورة فى نفسه تتصاعد مع كل هدف يحرزه أحد الفريقين. وابتعد بعض الشىء عن محيط اللعب وإذا بالصاعقة تنتقض عليه فجأة، فى صورة إحدى حوريات الجامعة التى اتجهت إليه وقالت له بالإنجليزية:

– هاللو... كم الساعة من فضلك؟

الساعة، تايم، تان، تيمبو، أورا... عيناك أشد إخضرارا من سهول أيرلندا الخصيبة... من قال هذا البيت... يا لجمالك يا فاتنتى... بم أجيبك؟ أنا الذى ملكت ناصية اللغة الإنجليزية ارتبك أمام سؤال بسيط كهذا يستطيع طال فى الإعدادية أن يرد عليه بسهولة... لم أرتبك من السؤال، بل من صاحبة السؤال التى هبطت عليك كما يهبط الحظ الحسن على من طال عهده بسوء الحظ. ورد بصعوبة بإنجليزية سقيمة متقطعة وغير سليمة:

– الساعة... الساعة... نصف وثانية عشرة...

رددتها الفتاة فى حيرة واستغراب، ثم استدارت عائدة إلى جماعة كانت تقف معها. وأفاق سامى على ذكر الساعة، فقد اقتربت من الواحدة ولما يمر بعد على السكرتيرة لمعرفة نتيجة

الامـــتحان ودفـــع المصـــاريف واتمـــام بقية الإجراءات الإدارية للالـــتحاق بالجامعـــة. وهرع إلى أول مبنى على يمينه، وسار فى دهالـــيزه المظلمـــة الرطيبة عائدا ؟إلى قسم الدراسات العليا، ومن حولـــه أشباح طلبة وطالبات وأساتذة يروحون ويغدون فى صمت وهـــدوء. ووقف بجانب إحدى ثلاجات المياه المنتشرة في الأرجاء هـــنا وهناك وداس بقدمه لسانا تحت الثلاجة فانبجس الماء مثلوجا مـــترعا فـــنهل منه حتى ارتوى، واستقام مرة أخرى وأسرع إلى حجرة السكرتيرة ولاحت له الحجرة على البعد هادئة وقد اصطف أمامهـــا ثلاثـــة طلبة وطالبتان يتحادثون همسا: فاقترب منهم وقد أيقـــن أن النتـــيجة قـــد ظهـــرت. ومرق من وسطهم وتوجه إلى الســـكرتيرة الـــتى جلست إلى مكتبها منهمكة فى الدق على الآلة الكاتـــبة، بيـــنما وضعت نظارتها الطبية على عينيها. ووقف إلى جـــوار المكتب صامتا حتى رفعت هى عينيها إليه ونظرت نحوه مستفســـرة ، ثم بأن على وجهها أنها قد تعرفت عليه لطول تردده على السكرتارية قبل ذلك. قالت له بلهجة شامية:

– آه، حضرتك من طلبة الدراسات العليا، أليس كذلك؟

– أجـــل. وقد قلت لى أن النتيجة ستبلغ لكم اليوم أو غدا من قسم الأدب المقارن، فهل ظهرت يا ترى؟

– نعم... انتظر لحظة من فضلك.

وأكملـــت الخطـــاب الذى كانت تكتبه على الماكينة ، ثم ســـطرت فيه بعض الكلمات وناولته إلى أحد الطلبة المنتظرين فى الخارج وهى تقول له:

- تفضل يا سيد عمرو، تذهب بعد ذلك إلى الخزينة لدفع المصـــروفات، ثم إلى "الكلينيك" للفحص الطبى، ثم تتكرم بحضور المحاضرات ابتداء من بعد غد.

وشـــكرها الفتى وتناول منها الورقة. والتفتت إلى سامى متسـائلة، ثم هرعت من فورها إلى الدولاب المجاور وهى تسأله عن اسمه:

- سامى سالم.

فأخذت تفرز الدوسيهات التى أمامها وهى تكرر الاسم ثم أخرجت دوسيها منها وهى تصيح صيحة أخيرة:

- سامى سالم . ها هو.

ثـم فتحت الدوسية، وقلبت بصرها بسرعة فى محتوياته، ثم طوته بين يديها مرة أخرى وقالت وهى ترفع عينيها من وراء النظارة الطبية:

- نحــن أسفون جدا يا سيد سامى، إنما أنت لم توفق فى اختبار القبول.

وشملته غشية غريبة لم يدر معها ماذا قالت له السكرتيرة أو ماذا يتعين عليه أن يقول هو. ولكنه تماسك لحظتها ورسم على شفتيه ابتسامة المعهودة فى هذه الظروف وأجاب:

- آه... لا بأس. هل أستطيع أن أسحب أوراقى الآن؟

- الحقـيقة أن لدينا عملا كثيرا اليوم للانتهاء من أوراق الالتحاق والتسجيل وما إلى ذلك.

- ولكنى أود التقدم إلى إحدى الوظائف فى الشركات، آخر موعد للتقديم هو بعد أيام قليلة.

- إذن لو تفضلت ومررت على غدا فى مثل هذا الوقت لأمكننى أن أسلمك شهاداتك وأوراقك.

- طيب يا فندم، متشكر جدا. لقد اتعبتكم معى.

- لا أبدا.

وخرج سامى وقد غامت المرئيات أمام عينيه وانسحبت متراجعة إلى قرار عميق غميق. واجتاز مجموعة الطلبة والطالبات وكانوا ينظرون إليه فى عجب كأنه إنسان خرج حديثا من السجن أو كأنه من أصحاب الكهوف. لماذا يا ترى؟ هل فى مظهره ما يشى بالثورة التى تعتمل فى نفسه؟ لقد قال كاتب عظيم مرة على لسان بطله اللامنتمى - أو المنتمى - تجلدى يا نفسى وأنا أعدك بأن أطلق العنان لآلامى ودموعى بعد ذلك فى هدأة الليل حين تستريح النفس إلى خلوتها.

وسار فى خطوات بطيئة متثاقلة عبر الممر المفضى إلى الخارج وتطلع فى أسف وأسى إلى المدرجات الصقلية التى لن يقدر له أن يجلس عليها، وأرخى جفونه فى شجن ومضى فى سيره. وشعر بالارتباك والحيرة، كأنه دخل دارا ليست له ويخاف أن يقبض عليه أصحاب الدار الحقيقيون . وأسرع إلى الباب الواطئ الدوار يحاول دفعه ليهرب مسرعا، وكان أحد السعاه قادما من الناحية الأخرى، فانتظر حتى يمر، ولكن الساعى دفع الباب وانتظر أن يتقدم سامى ليخرج أولا، ورفع هذا رأسه إلى الساعى

مســتطلعا، ثم أسرع بالمروق من الباب وهو يقطر خزيا وخجلا من الموقف. وسار يجر قدميه حتى خرج من المبنى، ومضى يغذ الســير فــى الهــواء الطلق ليخرج من هذه الجامعة التى شهدت مصــرع آمالــه ومقتل مستقبله. أنك لم تصنع لهذه الحياة، وهذا المكــان ليس لك، ولم تكن أنت بالذى يعيش فيه. ومن تكون حتى تستحق هذا؟

أخرج منها فانك رجيم. وتطلع إلى المكان الذى حرم منه وأقصــى عــنه، والشمس تسطع عليه فى بشاشة وبهجة، والهواء يســرى فــيه نسيما محملا بشذى الزهور وأريج الريحان. أخرج مــنها مذءوما مدحورا. كيف ترسب فى امتحان قد تخصصت فى مواده؟ لقد أجبت إجابة جيدة. أخرج منها، رجيم، مذءوما، أخرج، مدحــورا. مــم صنعت يا سامى؟ وممم صنع قدرك؟ وترددت فى فؤاده أقوال أحمد بن الحسين خالد الذكر:

أبوكم آدم سن المعاصى
وعلمكم مفارقة الجنان

ونظــر عم رضوان إلى سامى محملقا مطيل النظر إليه. ولــم يأبه سامى بالنظر إليه، فلم يكن يشعر بشىء مما حوله، إلا بشعور الطرد من هذا الفردوس الحبيب إلى قلبه، بعد أن تقوضت أحلامــه، وحرم إليه التطلع إلى هذا الجانب الذى كان يحتل ركنا أثيرا فى تفكيره وفؤاده.

وعلـــى باب الجامعة، التفت سامى وغطى المكان بنظرة وداع شـــاملة، وطـــبعه على عينيه اللتين غممتها دموع رقيقة لا تحـــس ولا ترى ، واستدار وخرج من الباب الحديدى الضخم إلى صراع الدنيا وخضمها وضوضائها.

-4-

لقد أعطيتنى الزنابق أول مرة منذ سنة مضت
فسمونى يومها فتاة الزنابق
ورغم ذلك فحين عدنا متأخرين من خميلة الزنابق
وذراعاك مليئتان وشعرك مبلل
لم تنبس شفتاى بكلمة
ووهنت عيناى
لم أكن بالحية ولا بالميتة
ولم أدر شيئا
وأنا أحملق فى قرارة الضوء
قرارة الصمت.

"ت. س. اليوت"

وقف بقامته الطويلة فى الخارج لا يدرى إلى أين يتوجه وإلى أى منطقة يقود قدميه بعد ذلك. كانت نفسه قد تحطمت وتبخرت قواه شعاعا، وامتدت العدوى إلى جسده فشعر بالوهن والخور. وغامت عيناه وسط الضوء المنصهر الذى جعل كل شىء أمامه كيانا هلاميا يتلألأ فى ضياء سقيم عقيم. إلى أين يذهب حتى يحين موعده مع سناء؟ الساعة الآن الواحدة وموعده معها فى الثانية فأين يمضى هذه الساعة الطويلة، ساعة الوحدة والألم؟ كانت سناء هى عالمه، هى الوحيدة التى يشعر معها بالصدق والأصالة. ولكنها كانت مشاعر وأحاسيس غريبة ومن طراز فريد. كانت الأحاسيس التى تثيرها سناء فيه أحاسيس تجمح إلى طرفى نقيض: طرف المتعة والسرور الزائدين عن الحد، وطرف الألم والحزن اللذين لا يستطيع بشر أن يتحملهما. لقد كانت علاقة غريبة ممعنة فى غرابتها ملأت حياتهما يوما ما، وما زالت تملأها حتى هذه اللحظات، وإن كان الملء يختلف فى كلتا الحالتين . وأصبح سامى وإذا تلك الفتاة التى أضاءت حياته يوما ما مجرد مسألة أو قضية فى طريقها إلى التصفية . التصفية... يالها من كلمة بشعة على قلب المحب الصادق، ومع ذلك فقد قلتها يا سناء لحبيبك ، ولا تزالين تقولينها ونقلها هو عنك وترددت على لسانه، وهو الذى ما كان يخطر له يوما أن يتحمل التفكير فيها. أجل ، يبدو أن حبك فى طريقه إلى التصفية فعلا يا سامى، ومع حبك قلبك وحياتك ووجودك كله. لن استطيع أن أذهب لتمضية هذه الساعة فى أى مكان، فالقلب مفعم بالهموم ويكاد ينفجر ، فلأحاول أن أكلم سناء بالتيفون لتقديم الموعد.

واتجه إلى كشك الحلوى القائم فى وسط ميدان التحرير، وقد ثقلت جفونه وعبس مثلما يعبس كلما ألم به خاطر من خواطر عدم ثقته فى سناء. كان ثمة طابور من طالبى الشراء، وواحد من الزبائن يهم برفع سماعة التليفون ليطلب رقما. وأسرع بالوقوف خلفه حتى يضمن دوره بعده. وجاء صوت الفتى رقيقا ناعما يحادث فتاة. لابد أنه على وفاق معها، فهو يتحدث همسا، ضنا بأسراره وسعادته على من يحيط به من أناس، وكلهم فى هموم تلهيهم عنه. أنا وحدى كتبت على العينان المفتوحتان والسمع المرهف والقلب المضنى. أنا وحدى أحمل آلام البشر، وعذاباتهم، ومعاناتهم، وسعادتهم أيضا.

ووضع الفتى السماعة ووجهه يطفح بشرا وفخرا. وتقدم سامى وطلب الرقم المعهود الحبيب إلى قلبه. نادرا ما يثبت فى ذاكرته رقم تليفون. ولكن هذا الرقم احتفر لنفسه شكلا فى قلبه وفى كل ذرة من كيانه. ودق الجرس، ورفع أحدهم السماعة على الطرف الآخر. أيوه يا فندم، مين؟ من هو يا ترى ؟ صوته رزين لقد قالت لى أنه لا يوجد موظفون رجال فى حجرة مكتبها . أيكون...؟ سنرى.

- ألو... الآنسة سناء من فضلك.

- أيوه... لحظة واحدة.

وبعد لحظات جاءه الصوت الحبيب. ولم يبد حبيبا فى أذنه ولا فؤاده:

- أيوه يا سانى... انتى فين؟

- حكون فين يعنى... فى أودتى.
- ومن هذا الذى أجاب على التليفون؟
- ده... سأقول لك فيما بعد.
- ولم لا تقولين الآن؟
- لا أستطيع الآن يا سامى. سأقول لك فيما بعد كل شىء.
- أريد أن أعرف الآن. قد لا تمهلنى شكوكى وأحزانى حتى أراك.
- وبعدين يا سامى. ما هذا التخريف. سأضطر إلى إغلاق السكة.
- إذن انزلى الآن أريد أن أراك حالا.
- الآن لا يمكن. لقد بقيت ساعة أو أقل، لماذا لا تنتظر؟
- لا أجد ما أفعل.
- وأنا لا أستطيع أن أترك العمل الآن. لدى ما يشغلنى.
- والله عال جدا. عظيم! تتركيننى هنا وتتثاقلين عن لقائى من أجل العمل. أنا قلت لك منذ زمن أنك تعتبرين العمل أهم منى.
- سنعود مرة أخرى إلى هذا الحديث. باى باى. موعدنا فى الثانية.
- سنرى من يتحمل نتيجة كل هذا.
- باى باى.
- مع السلامة.

ووضع السماعة وهو يكاد ينفجر من الغيظ. وازداد اضطراب المرئيات وتشوشها أمام ناظريه. وظل ساكنا لحظة وقد نسى أن يدفع ثمن المكالمة ، حتى اضطر صاحب الكشك إلى تنبيهه.

- قرشين يا أستاذ.

- آه، لا مؤاخذة، تفضل.

ودفع النقود، وسار لا يدرى كيف تحمله قدماه، هكذا كانت حياته معها طوال سنوات ثلاث سقام. كل يوم مثل سابقه، لا يأتى بجديد إلا فى صنوف الشك والعذاب.

أمامه ساعة طويلة لا يدرى كيف يمضيها. أفضل شيء اللجوء إلى ملاذه فى تلك الأوقات العصيبة. المشى والعزلة. سأمشى إلى مكان اللقاء، فى ذلك الطريق الذى طالما أحببته يوما فى زمن فراغك العاطفى وراحتك النفسية، كورنيش النيل الذى يصل ما بين كوبرى قصر النيل والقصر العينى، حيث الفيلات الهادئة التى لا يسمع فيها صوت والتى طالما كنت تحلم بأن تضمك واحدة منها مع سهير التى كانت تدين بغير دينك ومع ذلك أحببتها أيام الطلب فىالجامعة. أين تلك الأيام! ربما لو كنت أدمت علاقتك بسهير وطورتها لكانت قد انتهت إلى نفس الحال الذى آلت إليه علاقتك بسناء.

ووصل سامى إلى كورنيش النيل المجاور لكوبرى قصر النيل، وبدأ رحلته المعتادة المختارة التى صار لها هذه الأيام مذاق مر جديد. ترى من هذا الذى رد عليه فى التليفون. ألم تذكر لك

من قبل أنها تتحاشى الجلوس فى الحجرة حين يكون فيها زملاء لها من الشباب استجابة لإلحاحك عليها بأن تفعل ذلك؟ كيف ستبرر حادثة اليوم يا ترى؟ أن معينها لا ينضب أبدا فى انتحال المعاذير، ويعرف هو أحيانا - وفى كل مرة ينتابه الشك - أنها تعلات وأكاذيب، ولكنى أضطر فى معظم المرات إلى الانحناء للعاصفة لأنى أعرف تماما أنها وصلت فى حدود احتمالى إلى أقصى إمكاناتها. ترى ما الذى تخفيه عنى؟ لاشك أن هناك أمورا تخفى على من أحوالها فى العمل وفى البيت وفى القطار وفى كل شىء.

ما الذى يجعلها تتمسك بهذا المكان الذى تعمل فيه بكل هذا الإصرار. وتذكر أنها رغم ذلك لا تحادث أحدا من الشبان هناك ولا تصادقه صداقة الزمالة الطبيعية ، ورغم أنها تقول إنها تود أن تنتقل إلى عمل آخر فانها لا تفعل شيئا فى ذلك السبيل. وحسين الذى أفسد علاقتكما فى مرحلة من المراحل. لشد ما تغيرت سناء. لم تكن على هذه الصورة حين عرفتها أول مرة. كانت كالوردة البيضاء الناضرة . كم أتمنى لو عدنا كما كنا أول مرة، مجرد زميل وزميلة فى العمل. وكانت رقيقة ولا تقوى على أعصابك.

- هل قرأت شيئا لهمنجواى يا سناء؟

- أيوه، قرأت له روايتين أو ثلاث. أظن أنه لم يصدر غيرها بالعربية . وداعا للسلاح، وتشرق الشمس ثانية، وكتاب آخر عن مصارعة الثيران.

– ولماذا لا تجربين قراءته بلغته الأصلية؟ انك خريجة علوم سياسية ولابد أنك متينة فى اللغات. على العموم، لدى رواية ثالثة مترجمة إلى العربية وقد ظهرت حديثا هى "لمن تقرع الأجراس". هل تودين ان أحضرها لك؟

– هذا إذا سمحت ، أكون شاكرة.

– باكر أن شاء الله تكون لديك.

ويشرق وجهها بتلك البسمة اللطيفة السعيدة التى كنت تحس أنها تبسمها لك وحدك من دون زملاء العمل. وظل الحال هكذا حتى بدأت تشعر بها تتسلل إلى قلبك رويدا رويدا لتستقر فيه . إنى أستطيع أن أحدد لحظة شعرت بك متربعة فى قلبى يا "سانى". كنا فى أوائل شهر يوليو، يوم خميس، وأنا فى المكتب حاملا معى حصيلة الصباح من الكتب والمجلات التى صدرت فى ذلك اليوم وكانت ضخمة نسبيا، فقد كان من بينها مجلة عن الفكر السياسى الدولى وكتابان من سلسلتين دوريتين. وطفقت أطالع المجلة السياسية وكنت أنت أيضا قد اشتريتها، ثم وجدتها فرصة للحديث معك عن أستاذك السابق الذى عينوه رئيساً لتحرير تلك المجلة، وما كدت أهم بالحديث حتى وجدتك ترفعين وجهك إلى وأنت تبتسمين ابتسامتك المشرقة، كأنما تدركين إدراكا قويا ما كنت أتأهب لقوله وهو "لقد جعلوا من صديقك رئيسا للتحرير". وضحكنا كثيرا وتناقشنا طويلا فى أبواب المجلة. ثم قلت اننى قد أحضرت لك رواية شيقة ستعجبك كثيراً، ولكنى سأرتكها حتى يوم السبت لأنك طبعا ستنشغلين فى قراءة المجلة يوم الجمعة. فقلت

لى بطريقة مذهلة رقيقة للغاية وباسمة ضاحكة: "لا ، آخذ الرواية اليوم وأترك المجلة ليوم السبت"، فقدمتها إليك على الفور وأنا لا تسعنى الدنيا من فرط البهجة والسعادة. وفى تلك اللحظة بالذات شعرت بك يا سناء فى قلبى، ترقدين فيه وديعة مستكنة باسمة ضحوكة.

ما الذى حول تلك الأيام إلى هذه البشاعة التى نعيشها نحن الاثنين الآن. لقد بدأ الأمر بمحاولة منى للاستئثار بها من دون الجميع ، شانك وشأن أى شىء أحببته . لقد عمدت إلى "هش" الجميع من حولك ، حتى لا يكلمك أحد غيرى. وبدأ الأمر بموقف زميلكما سعيد.

- ماذا كان يقول لك سعيد يا سناء؟

- سعيد؟ متى؟

- الآن ، حين دخلت أنا الحجرة.

- آه، لا شىء.

- لا تحاولى الدفاع عنه. انى أشعر أن "سعيد" ينقم علينا أننا متفاهمان وأننا نميل إلى بعض. ماذا كان يقول؟

- اسمع ، اننى لا أحب أن أسبب أى زعل بينكما. لا شىء. لم يكن يقول شيئا هاما.

- أريد أن أعرفه بتفاصيله.

وبعد محاولات منها للتهرب، اعترفت بكل شىء.

- كان يقول عنك انك مغرور وتحب أن تلعب بالناس. أنه كان يضحك ولا يقصد ما يقول.

وغرقت فى تفكير حزين ثم رفعت رأسك وقلت لها:

- رجائى ألا تحدثى "سعيد" بعد الآن إلا بأقل ما يمكن من كلمات ضرورية.

واستجابت لك سناء ولم تعد تحادثه بعد ذلك ، وأحس سعيد بذلك فلم يحاول أن يحادثها هو الآخر. وأغراك الانتصار الساحق الذى لم يكن يخلو رغم ذلك من غمز ولمز، واتقد حبك لسناء وأصبحت تغار عليها من النسمات ، نسمات الجنوب والشمال. على محياك يا حبيبى. انها غلطتى إلى حد ما. خطئى يا سنائى العزيزة.

أعترف الآن بأن الخطأ الأساسى هو خطئى. وإن كان الناس قد ساعدوا على تعقد الموقف وتطوره وتشابكه، فهم غير مذنبين فى الأمر قدر ذنبى أنا فيه. أساس خطئى يا سناء الجميلة هو أننى نظرت إليك على أنك فوق البشر. لم أنظر إلى تكوينك الجسمانى المصنوع من اللحم والدم والغرائز، وإنما نظرت إليك باعتبارك روحا جميلة شفافة. تجاهلت أنك بلغت الثانية والعشرين وتعديتها وأنك قد تنقلت بين مدن عديدة مع أبيك مهندس الرى، وأنك تسافرين الآن ومنذ سبع سنوات مضت من طنطا إلى القاهرة وتعودين كل يوم، وفى هذا ما يملأ قلب وعقل فتاة ناضجة التفكير حادة الذكاء مثلك بالتجارب والمشاهدات والقصص... والمعجبين. تجاهلت أنك ولابد تعرفين الكثير من الناس، قد تكون معرفة سطحية عابرة، وتتبادلين الحديث مع عشرات ممن تصادفينهم فى حياتك، وانطلقت أصور منك فى خيالى فتاة رقيقة

حالمه – وأنت كذلك فعلا – يُخشى عليها، وسط أناس يغلب عليهم الحقد والطمع والشره فى كل شىء . وكان مما شجعنى على أن أسدر فيما أنا فيه أننى كنت دائما اكتشف – فى نهاية الأمر – أن ما أشك فيه – معك أنت بالذات – كان يتكشف عن حقائق مذهلة – وإن تكن سطحية – تؤكد وتبرر شكوكى الأصلية، فأهتف فى داخلى : O. My Prophetic Soul وأمضى من نقطة إلى أخرى فى طريق العذاب والمتعة الطويل. ويبدو أنك أيضا كنت تلعبين – بطريقة لا شعورية – لعبة العذاب والمتعة تلك، ذلك أنك باطاعتك إياى – فى نهاية الأمر وبعد الجدال والعنف المعتادين – فى طلباتى الغريبة المتطرفة ، قد ساعدت فى أن نسير معا فى ذلك النفق الأسود الذى انتهى بكلينا إلى اللاشىء.

مرسى قوارب الورش الأميرية. منظر رائع تمتزج فيه الخضرة الصافية المدهامة بالبياض الناصع . وهناك لنش صغير أمام الشاطئ يستعد صبيان صغيران لإرتقاء سطحه. والعمائر الشاهقة الجميلة الأنيقة. لقد تمنيت يوما أن تعيش فى إحدى شقق هذه العمارات مع شريفة ، أو ربما كانت "سهير". لقد كدت أنساهما تماما. هل يا ترى يجئ يوم لا تتذكر فيه "سناء" أيضا كسهير وشريفة ؟ لشد ما أتمنى أن يأتى ذلك اليوم سريعا. سناء. سناء. وتذكرت كيف أن الانتصار قد شحذ فكرك وأشرع كل أسحلتك ، فمضيت فى حبها إلى أقصى مدى، وتسلطت على عواطفها ووقتها وخيالها بطريقة لم يسبق لها مثيل من قبل. ومضيت فى حبها لا تلوى على شىء.

وقضيت معها أوقاتا كالجنة، وهى تجلس إلى جوارك فى العمل. وأفلحت فى أن تقصى الجميع عنكما، عن طريق الإلحاح والضغط حينا، وعن طريق حبك العنيف حينا آخر.

- سناء ، أنا لا أريدك أن تحادثى "منصور" بعد الآن.

- لماذا، هل حدث شىء؟

- أجل. لقد أهاننى أمس إهانة بالغة. وقد قررت أن انقطع عن محادثته.

- طيب ، ومالى أنا بذلك؟.

- أنت حبيبتى ويجب أن تخاصمى من أخاصم.

وضحكت كثيرا وقالت:

- أولا أنا لست حبيبتك، ويجب أن تحاول أن تنسانى . يا أخى أنت فى مقتبل عمرك ووسيم وألف واحدة تتمناك. أرجوك أن تبحث عن فتاة غيرى.

ولكنها كانت محاولات منك للتملص من هذا القدر المحتوم الذى يربط بيننا ، وانتهى النقاش بعبارتك المعهودة:

- حاضر يا سيدى، سأحاول.

وصارت لك وحدك وصرت لها وحدها. ولم نعد نشعر بمن حولنا ولا بما يدور حولنا . حتى جاء يوم صدر فيه قرار بنقلها إلى وزارة أخرى فى وظيفة عالية توسط لها أحد أقاربها للنقل إليها. ورحبتما بذلك أنتما الاثنان، لأنه سينقذكما من وضع لم يكن له حل، وكان يضغط على أعصابكما. ولكنك لم تطق أن تتصور أن يأتى يوم لا تسمع فيه دقات قدم سناء، ولا تراها وهى

تدخل الحجرة باسمه وتقول صباح الخير يا سامى. واستيقظت مداركك وتنبهت ذرات وعيك وتأهبت لخوض معركة فاصلة . وطلبت منها أن تقابلك فى الخارج . ورفضت هى رفضا شديدا، وإن كان واضحا عليها الأسى والحزن من الفراق الوشيك. ولحقت بها يوما على محطة الأوتوبيس، وبان عليها ذعر حقيقى ، ولكنك كنت قد نويت أمرا.

– أيه ده يا سامى، سيرانا الناس.

– لا أحد يهمنى ، أنت فقط من أنشد.

– طبعا ستنزل فى ميدان التحرير وتذهب إلى سميراميس وتأخذ فنجان شاى يهدئ من أعصابك، ثم أراك غدا فى المكتب.

– بل سننزل سويا ونذهب سويا ونشرب سويا.

– مش ممكن يا سامى.

وفات الأوتوبيس ميدان التحرير، وبان عليها الاضطراب حين بقيت فى الأوتوبيس ولم تنزل. ووصلنا إلى نهاية الخط فى ميدان باب الحديد حيث كانت ذاهبة . ونزلنا سويا ، وألححت عليها إلحاحا شديدا فى مصاحبتى إلى ميدان التحرير مرة أخرى . وبان عليها أنها تفعل ذلك لأول مرة فى حياتها ، فقد كان وجهها محمرا وصوتها غريبا ويبدو عليها ذلك الاضطراب الممتزج بالنشوة الذى يلازم هذه الخطوات الأولى من حب جديد.

وركبتما تاكسيا إلى سميراميس . وكانت جلسة تماوجت فيها أشعة شمس شتائية وظللتكما فى دفء وفرح بالبراعم المتفتحة فى القلوب، ويرتجف فيها الشاى الساخن بين أيديكما من نشوة اللقاء الأول الباسم.

ولم يلتقيا بعد ذلك ألا بعد أن تركت هى وزارتك، وصارت تجد حرجا أقل فى الظهور معك فى الأمكنة العامة. ولم تتبصر أنت فى كل هذا، والا فهل يتبصر الجندى الشجاع أو يتردد حين يكون مقدما على غزو قلعة من القلاع الشامخة ويعرف أى مجد وسعادة ينتظرانه إذا هو نجح فى ذلك الغزو والامتلاك؟ لقد كنت أريد أن أغزو قلبها ومشاعرها ، أن امتلكهما امتلاكا دائما حقيقيا.

فيللا الدكتور صبرى ببنائها الكلاسيكى الذى يتناسب مع تفكيره وذوقه . ترى أين هو الآن بعد أن وضع تحت الحراسة وصودرت ممتلكاته، وكيف ينفق على أهله وعلى هذا القصر الكبير الآن ؟ لقد كنت معجبا به دائما وبمحاضراته عن شعر التروبادور وعن النقد التطبيقى للشعر الفرنسى الرمزى وخاصة قصائد أندريه بريتون. ترى هل تعود مرة أخرى يوما ما ذلك الشاب الفنان الذى يركز كل همه فى الكتب والقراءة؟ يجوز! بعد أن تصفى موضوع سناء، سناء، سناء، سناء. ترى ماذا تفعلين الآن، ومع من تتحدثين؟

وعبر سامى فيللا الدكتور صبرى، وأشرف على الكوبرى الجديد الذى يشنيدونه ليصل منطقة القصر العينى بالروضة، أمام الفندق الفاخر الذى لا يزال بدوره فى مرحلة البناء. وكان العمال يصدرون ضجة هائلة وهم يصعدون ويهبطون على السقالات وينشدون أغانيهم الغريبة.

وأصبحنا نتلاقى كثيرا بعد ذلك. وتردد الحديث مبهما عن الزواج. وبدأت المتاعب تأتى من جهة من يعملون معها. متاعب أنا مصدرها وليس هم. ذلك أنه بما أننى عرفتها عن طريق الزمالة فى العمل، فقد كنت أخشى أن يتكرر ما حدث معى مع زميل من زملائها الجدد. أو هكذا صورت لى أوهامى . أو أقنعت نفسى. وعلى مدى الشهور، تكررت طلباتى منها بأن تقتصر فى علاقاتها مع زملائها على مجرد التحية ومقتضيات العمل. وحين كنت أشعر بإمكانية قيام أى زمالة عادية أو صداقة مع زميل لها، أختلق المعاذير كى أطلب منها عدم محادثته على الإطلاق. وكانت كل مرة من هذه المرات تشغلنا نحن الاثنين أسابيع وشهورا، حتى تضطر تحت الحاحى إلى مجاراتى. وكانت أبرز مشكلة بيننا فى هذا الخصوص هى حكاية حسين.

حسين رامى. ما زال هذا الاسم يرن فى أذنيك وسيرن فى وعيك ولا وعيك ما دمت تدب على هذه الأرض. بدأ هذا الاسم يرن فى مسامعك بطريقة عادية من شفتى سناء مع مرور الأيام. لم يكن فيه ما يريب. ولكن ، آه مما حدث.

- أخيرا نقلت إلى القسم الجديد.

- أى قسم؟

- قسم التخطيط ، ألم أخبرك من قبل؟ لقد صرت أعمل مع حسين.

- ما هذا الكلام يا سناء! وأى حسين هذا الذى تسرين كل هذا السرور بالعمل معه؟

- أنه شاب لطيف مهذب جدا. كما أن من رأيه عدم الإكثار من الشغل بالنسبة للمرأة، ولهذا فإننى أشعر بأننى سأستريح معه تماما.

- الله الله! إننا لم ننته بعد من حكاية عادل، وأنت تدخلين بنا إلى حكاية أخرى.

- هكذا أنت دائما. أرأيت؟ إذن أنها ليست حكاية منصور أو عادل أو حسين، أنها حكايتك أنت. إنك مريض. إن الداء فيك أنت.

- لا تقولى لى هذا الكلام. أمن أجلهم تقولين لى هذا الكلام الجارح!

- ليس من أجلهم . بل لصالحك أنت.

وكانت هذه نقطة تحول فى علاقتكما . بدأتما تحسان معا بأنه لا يمكن الاستمرار بينكما. وبدلا من اللقاء لتبادل الود والحديث عن زواج مرتقب، كان اللقاء للجدل والشجار وطلبات ورفض وقبول. وبدأت هى تكذب عليك ، أكاذيب صغيرة تافهة ولكنها فى نظرك أكاذيب. وبدأت أنت تشدد الخناق عليها وتطلب منها أن تقسم على المحافظة على وعودها لك. ولم يكن هناك بد من الخصام. كان تجربة ترى فيها هل يمكنك الافتراق عنها. ولكنه خصام لم يستمر أكثر من ثلاثة شهور، ثم لم تقو على الاستمرار. وجاءت إليك مهرعة، تحت الحاحك.

- أزيك يا "سانى".

- ...

- فترة طويلة لم نلتق فيها.

- ...

- ثلاثة شهور ...

- ...

- نقص وزنك بعض الشيء.

- ...

- لقد عرفتك من بعيد جدا. من مشيتك التى لن تتغير أبدا.

- ...

- ولماذا ترتدين هذا الفستان؟ طبعا لابد وأن تكونى قد اشتريت فساتين جديدة فى هذه الفترة وأنا مشتاق إلى رؤيتها. أن ذوقك باريسى.

- ...

- ثلاثة شهور لا أراك فيها. ولا حتى اتصال تليفونى. تعرفين أننى قد تركتك أخر مرة مجروح الفؤاد تماما، ولم يكن فى مقدورى أن أبدأ أنا الاتصال بك وأنت بدأت الخصام. ولكن هذه أمور سيطول فيها الحديث. والمهم اننى بعد كل هذا أنا الذى صالحتك ، ولابد أن تقدرى هذا حق قدره.

- ...

- وايه الأخبار؟ طبعا لا أتوقع أن تكوى قد حافظتى على وعودك لم بعدم الحديث إلى حسين . أنى أخشى أن أسالك فى هذا الموضوع لكى لا أصدم بما يكون قد حدث.

- ...

- اننى سعيد جدا بأنك قد فعلت كل هذا. ولكن حسين، هل كلمتيه؟

- ...

- نعم، ولكن... حسين؟

- ...

- ماذا؟ كلمات بسيطة؟ هذا يعنى أنك كلمتيه.

- ...

- آه... (حينئذ تعاودنى النوبة ثانية)... اننى لا أكاد أصدق ما أسمع منك يا سناء. لقد عدت إلى محادثته بعد كل هذا! وبعد أن اقسمتى لى أنك ستخاصمينه إلى الأبد من أجلى. هل لأن خصامنا قد طال بعض الشىء تتنكرين لكل ما اتفقنا عليه؟

- ...

- لم أكن أتوقع أى شىء من هذا. إن ثقتى فيك كانت لا تزال تضطرم فى قلبى وتمنع أى احتمال لخيانتك لى. لقد حطمتنى بفعلك هذا. آه... أن مشاعرى تخوننى والكلمات ترن غريبة فى أذنى...

- أسفة يا سامى، لقد اضطررت إلى محادثته اضطرارا، لقد كان عائدا لتوه من رحلة إلى الخارج ، والجميع يصافحونه ويسألونه عما رأى فى رحلته، ولم أملك إلا أن أشاركهم فى ذلك.

- تشاركينهم حقا! تشاركينهم فى حبه ، هذا الفتى الهائل الغريب!

- هائل! إنه تافه جدا، ولا أدرى ماذا يهمك أن كنت قد حادثته أم خاصمته.

- مهما يكن، لقد اتفقنا على عدم محادثته، ثم كسرت هذا الوعد بعد كل هذا.

- أنك فعلا ممثل قدير! أنك تجعلنى أحس كما لو كنت قد ارتكبت ذنبا خطيرا.

- وماذا يمكن أن يكون أخطر من هذا. لقد خنتنى. إنى أحس إحساس من يرى حبيبته تخونه مع رجل غيره بعينيه.

- لا تضخم الأمر يا سامى وإلا فإن الله سيعاقبك على اهتمامك بالتوافه هذه.

- إن ما تسمينه توافه هو حياتى... وماذا تنوين أن تفعلى الآن؟

- ماذا تنوى أنت أن تفعل؟

- أنى واثق من أننى قد أخطأت إذ تركتك كل هذه المدة. ظننت انك ستحافظين على عهودك رغم الفراق. ولكنى ألوم نفسى على ذلك. لو لم أكن قد تركتك لما حدث ما حدث. المهم الآن أن تقاطعى "حسين" فورا..

- ... حاضر.

- وفى أول يوم تذهبين فيه إلى العمل بعد الأجازة القادمة. سوق يحضر عندك ليسلم عليك ، فلا تسلمى عليه. وإن قال لك صباح الخير تجاهلى صباحه ولا تجيبيه على الإطلاق. أما إذا لم يفعل هذا ولا ذاك، فيجب أن ترسلى إليه صديقتك

نجوى لكى تخبره أنك ترتدين ألا يكلمك بعد ذلك ولا يدخل الغرفة التى تعملين بها.

- ... حاضر.

وعاد إلى ذاكرته - وهو يسير - كيف توالت الأحداث بعد ذلك، بين أخذ ورد، وبين هذا الشخص وذاك، إلى أن وصلت إلى نقطة لم تعد العلاقة علاقة حب أو ود، وانتهى بكما الأمر إلى الاتفاق على تصفيتها ، حتى يستطيع كل واحد منكما أن يعيش حياة طبيعية . واشترطت عليها ألا تتم هذه التصفية والفراق إلا بعد أن تترك عملها الحالى وتنتقل إلى وزارة أخرى. إذا لم أنلها أنا، فلن ينالها حسين.

كان سامى قد وصل الآن إلى مكان اللقاء فى شارع المنيل، عند محطة الغمراوى. وكانت الأفكار التى انثالت هكذا على ذهنه قد عصفت به حتى صارت عواطفه تتأجج داخل صدره من شدة الانفعال. ووقف على المحطة المقابلة فى انتظار وصول الأوتوبيس الذى يحمل سناء. وكان الطريق مزدحما بالناس، والباعة يرفعون أصواتهم ينادون على شتى البضائع، من فاكهة إلى خضروات إلى لوازم البيت . وحان الموعد ولم تحضر الفتاة المرتقبة . وكان مذياع المحلات يخترق آذان الجميع، ويعلو على جلبة الأصوات والعربات.

"يا أهلا بالمعارك... يا بخت مين يشارك"

"وبعد الليل... يجبنا النوم... وبعد النوم ربيع وشروق".
"فات الميعاد... وبقينا بعاد..."
"حديث الروح... للأرواح يسرى".

وتطلع سامى إلى ساعته. لقد مضى عليه ربع ساعة فى وقفته هذه. وأحس بالحرج من طول انتظاره. ماذا يقول من يقفون حوله، وأصحاب المحلات الذين يجلسون أمامها. لابد أنهم يتعجبون من وقفته هذه دون أن يركب أى أوتوبيس. قد يظنونه لصا. أو أنهم قد أدركوا الآن أنه ينتظر فتاة. فتاته. حبيبته. ولابد أنهم يشعرون بالشفقة عليه لأن فتاته قد أهملته ولم تحضر فى الميعاد. وتظاهر بأنه يتطلع إلى الأتوبيسات التى تصل إلى المحطة ، رغم أن عينيه كانتا فى الحقيقة تتابعان أوتوبيسات المحطة المقابلة وتنظران فى تدقيق إلى السيقان التى تهبط منها دون أن ترى أن ترى الوجوه، فقد كان يميز ساقى سناء من شكلهما ومن الحذاء الذى ترتديه ومن طريقة نزولها من الأوتوبيس. وتمنى لو أنه كان قد غير مكان اللقاء، فقد أحس بأن الجميع هنا أصبحوا يعرفونه ويعرفون لقاءاته مع سناء بل وينتظرونها مثل انتظاره لها، فقد مضى عليه وعلى حبيبته وقت طويل تكرر فيه لقاؤهما فى هذا المكان نفسه مرات عديدة لا حصر لها. وتعجب سامى من الانفعالات التى يثيرها فيه تتابع الأوتوبيسات القادمة على المحطة المقابلة، فقد كان قلبه يدق دقا عنيفا مع كل شبح فتاة لا يرى فيها سناء.

ليس أمامه إلا بحار اليأس يسقط فيها، والشمس تجبهه فى كل مكان. الآن فقط أحس بإحساس "ميرسو" وقوله بأن الشمس هى التى دفعته إلى قتل من قتل. وأنت قتلك قلب سناء الخائنة ويقتلك وسيقتلك فى كل حين وحين . ماذ هذا؟ قدما سناء أخيرا وهى تهبط على الرصيف المقابل بقفزتها الرشيقة التى لا تخطئها أبدا. وإنجاب الأوتوبيس الأحمر الهائل المغبر من أمام عينيك كأنه ستارة مسرح ، وها أنا أرى سناء تقف هناك وقد مالت على قدم من قدميها بطريقتها المعهودة وهى تحمل كيسا فى يدها. بياض بياض. بياض. أنها ترتدى بلوزة جديدة بيضاء تضىء ما حولها كالهالة.

آه... هكذا، لهذا تأخرت حتى تنتهى من تلقى إعجاب الجميع ببلوزتها الجديدة. لن ينتهى هذا اليوم على خير. فلأسرع إلى ملاقاتها. سريعا، آه، ما هذا؟ هذه العربة كادت تصدمنى، وتوقفت على بعد سنتيمترات منى. ما هذا؟ لافتة معدنية ، لافتة السيارة، ماركتها، على مقدمتها، والبخار يتصاعد من حولها فى كثافة بغيضة. بدفورد. هل هناك ماركة سيارات نقل اسمها بدفورد؟ لا أدرى. السائق يصيح. فلأسرع بالعبور إلى سناء.

بدفورد . بدفورد. أنها اسم الجامعة التى يدرس فيها حامد عزمى. حامد عزمى صديقك الحميم الذى سافر إلى إنجلترا للدراسة . ومضت عليه الآن سنتان لم تره، وكنت لا تكاد تفارقه ساعة واحدة. أنه صديق العقل والروح. ومع ذلك فبعد أن سافر لم ترسل إليه خطابا واحدا. أيامكما كانت دائما معا، وأمسياتكما

وأحيانا لياليكما. ليلة "كازينور" . كنتما تجلسان تقرآن مسرحية "مقتلة فى الكتدرائية" ، حين دخل المطرب الكبير ومعه سيدة حسناء أخذت بلب حامد فأصبح لا يريم فى جلسته، وأعلن أن هذا القدر الفائق من الجمال، البعيد عنه ، يصيبه بكآبة. واستمتعت أنت بجمالها وبجمال الجلسة والنيل ممتد أمامكما فى هدوء وانبساط. وناولك حامد لفافة "المعدن الرفيع" وانعقدت سحب من دخان السجائر. وتلك الجلسة المسائية فى "باريزيانا" ، حين كان معكما الصديق الفضولى الذى ظن أنك حقا من أتباع المحفل الماسونى المنحل ودخلت معه فى مناقشة فى ذلك الموضوع، ثم عببت مع حامد زجاجات البيرة ومشيتما تتطوحان فى الطريق من فرط الانتشاء الروحى وتتساجلان بالكلمات الإنجليزية. ويوم دخلتما المطعم الأنيق المصقول، ينضح بالباركيه والمرايا الناصعة، الأخير من نوعه فى قاهرة منتصف الستينات، وجاء الجرسون ووضع أمامكما السرفيس بكل احترام، وأحضر قائمة الطعام. وبأن عليكما الضيق من الأصناف القليلة والأسعار الفاحشة، فانتهزتما فرصة غياب الجرسون وتسللتما على أطراف الأصابع إلى الخارج فى تلصص مريب كان من صفات حامد، وأنتما تكتمان ضحكات انفجرت عاليةً بعد خروجكما من المطعم نهائيا بسلام . وفى الجامعة، وحامد يلبس ثوب المدرس الفنان الذى يتواضع كثيرا فيضع نفسه على مستوى طلبته. وقد ذهبت إليه يوما وحضرت أحدى محاضراته ومعك صديقة مشتركة لكما، وسأل سؤالا، كتبت أنت أجابته فى ورقة أمامك ودفعتها إلى

الصديقة التى لم تكن تفقه شيئا من الموضوع أصلا، ودعاها حامد إلى الإجابة ، فأجابت وسط استحسان المدرس ومدحه لها، وكان كل هذا مدعاة فكاهة لنا فى تلك الأمسية. وليالى الإملاء، وليالى المناقشات، وليالى الطعام والشراب، والكلمات الإنجليزية والفرنسية ، والترجمة ، وقطع المسافات الطوال على شاطئ النيل، والبيرة، والكباب، والطواجن العمرة فى "كازينور" وذكريات البلدة و"شفا" الخادمة، والموسيقى والمسرح، وليلة افتتاح مسرحيته الأولى، وكيف كان قلقا، وكيف قدمنا إليه تهانينا بعد العرض.

وصل سامى إلى الرصيف المقابل وقد كادت العربة الضخمة أن تدهسه، وخلفها وراءه وسائقها يدمدم بالشتائم التى كان هو يرجو إلا يلحظها أحد، فقد كان مخطئا بعبوره الطريق هكذا، ولم يكن أمامه إلا السكوت. ورأى سناء أمامه. ونسى كل شيء، ونسى حتى أنها لم يبد عليها أى تأثر للحادثة التى كانت ستقع له. ربما لم تلاحظ شيئا.

- أزيك يا سامى. آسفة لتأخرى.
- ما هذه البلوزة التى ترتدينها؟
- هل أعجبتك؟
- طبعا، لك حق ألا ترغبى فى ترك العمل مبكرا.
- هاها، أهذا بدل أن تقول لى مبروك.
- ها أنت تشعرين بخطئك . اعترفى!

- أى خطأ وأى اعتراف؟ أهكذا من البداية؟ أرجوك أن تكف عن هذا فكفانى التعب الذى لاقيته طوال اليوم فى العمل.

وكشرت من ملامح وجهها، مما مس أوتارقلب سامى فى الصميم . لقد حضرت وهى تضحك فرحة بملابسها الجديدة وتأسفت على تأخرها ، فما يكاد يلقاها حتى يثير غضبها وحزنها.

- وهل غصبك أحد على الاستمرار فى هذا العمل؟ هيه، ما الأخبار؟

- لا جديد.

آه... هذه العبارة اللعينة مرة أخرى. ما من مرة تقولها فيها فى تلك الأيام الأخيرة إلا ويرتسم على وجهها هذا القناع الجامد المصبوب الذى لا يدرى سواى أحد فى الدنياأنه قناع تضعه على وجهها حتى لا يفضح أى شعور ولو استدق وأرهف، لأنها تعرف أننى سأفضحه ، أنا، أنا، دارس القلب الإنسانى.

- لا جديد، دائما. وما أخبار النقل؟ لقد مضى شهران منذ اتفقنا على أن تتركى عملك الحالى إلى مكان آخر.

- لم أذهب اليوم إلى الوزارة الأخرى . سأذهب غدا.

- عظيم جدا، نظل نؤجل هكذا وها نحن فى شقاء مستمر.

- لقد كنت اليوم جد متعبة.

كانا يسيران وهما يتحادثان. الطريق الطويل المتعرج للمرة الألف. الطريق الذى يصل بين الشارع الرئيسى فى المنيل وبين كورنيش النيل، حيث الكازينو العابق الذى افتتح منذ عامين.

باعة الفواكه يصيحون من كل جانب. لقد كاد ناظرى يحفظ كل شىء، فنحن نذهب إلى ذلك الكازينو منذ عام تقريبا. أصبح كل شىء مكررا مألوفا، والكازينو نفسه أصبح عتيقا بعد أن كان عابقا. أنى أعرف كل من فى هذا الشارع ، فهل هم يعرفوننا أيضا؟ وما الأمر لو كان هذا صحيحا؟ لابد أن أحافظ على سمعتها أيضا، فيبدو أننا لن نتزوج أبدا والحال هكذا من الشقاق والشجار كل يوم. أرجوا الله أن يمر هذا اليوم على خير حتى أذهب إلى البيت دون بئر محفوظية جديدة تنفتح لى أثناء الرقاد.

- ما الذى أرهقك فى العمل؟

- كانت عندى مذكرة طويلة عاجلة.

- ولماذا لم تطلبى من زميلتك سلوى أن تساعدك؟ هذه الفتاة أنا لا أستريح لها، أنها معك فى المسرات فقط.

- حرام عليك. أنها أعز صديقاتى. لقد كانت مشغولة مع صفوت. آه، نسيت أن أخبرك . لقد حدث شىء جديد سيضايقك. لقد أتوا بزميل جديد معنا فى الغرفة.

أنها النوبة تعاودنى كما عاودت مكبث. لقد تغير منظر كل شىء أمامى. هكذا ، هكذا الدنيا يا صديقى، ألم ، ألم، دموع وألم. لوركا. اهدئى يا روحى. كالظلال. كالزجاج. بؤرتى ابتسامتى الساخرة.

- لماذا لا ترد؟ وما هذه الابتسامة التى لا تعجبنى؟

– أية ابتسامة ؟ أننى متعب. ألم أعبر لك عن مخاوفى من أن يأتى موظف جديد فيجلسوه معكما؟ ألا ترينَ أننى أشعر مقدما بما سيحدث؟

– وما ذنبى أنا؟ هل أمنعه من الدخول إلى الحجرة؟

– ذنبك أنك قد وعدتنى بعدم الجلوس فى غرفة بها أحد من الرجال وعليك تنفيذ ذلك الوعد.

– أرجوك أن تفكر بعقل يا سامي. أنه مجرد زميل... هه... ما قولك؟

الشمس تضايقنى . لا فائدة من شىء . وجهنم تفتح أبوابها على مصراعيها فى وجهى. هنا الغول العظيم. سيأتى وينتشلك بمنجله المحمى فى النار. مقامع من حديد.

– آه ، ولذلك فأنت ترتدين ملابس جديدة اليوم، وقد صففت شعرك على أحدث موضة. لابد أنك كنت تعلمين منذ أمس أنه قادم.

– هذا تخريف صرف.

– وطبعا كعادتك يهمك أن تجتذبى أنظار الغير، دائما ، لن تتغيرى أبدا. لقد سبق أن فعلت معى نفس الشىء.

– لقد بدأت تثقل على أعصابى.

– طبعا، فأنا لست كالآخر.

– طيب، لن أدخل الكازينو.

ونبهته هذه العبارة إلى أنهما قد وصلا إلى المحل. الكازينو العابق. المحل الهادئ. لقد كان يمنى نفسه دائما بأن

يحضر إلى هذا المكان الخلوى وحده ليقرأ أو يكتب، وذلك بعد أن ينتهى من الحياة العاصفة التى يمر بها منذ أعوام مع هذه الفتاة، سناء. ولكن، يبدو أن هذه العاصفة ستدوم إلى الأبد. لا نهاية لها. وحتى لو انتهت فستظل قائمة فى فؤادى ووجدانى.

- لا شىء من هذا. ستدخلين معى. لقد اتفقنا على ذلك.

- أرنى شطارتك.

واستدارت سناء مهددة بالعودة، ولكن "سامى" مد ذراعيه فقبض على ذراعها بيد حديدية ، استدار معها جسد سناء وسار إلى جوار سامى بقوة الدفع، وظل سامى قابضا على ذراعها.

- انك متوحش. اتركنى وسوف أدخل. ولكنى أحذرك ستكون هذه آخر مرة أحضر فيها! انك لن تستطيع أن تجبرنى على الحضور. ومهما قلت لك اننى سأحضر ، فاننى لن أحضر مرة أخرى.

- عظيم جدا، اسفرى عن وجهك الآن، لقد اتفقتما سريعا أنت وزميلك الجديد.

- انك قد جننت. ولكن هذا ليس جديدا عليك. لقد كنت دائما هكذا.

ودخلا إلى حديثة الكازينو. الهدوء والسلام يرفرفان على جوانبها. والخضرة فى كل مكان. واستقبلهما شذى أوراق شجر البرتقال واليوسفى العطرة الندية . وانتشى فؤاده لولا منغصات المشهد التراجيدى الراهن.

وأسرع إليهما الجرسون ، فقد كان يعرفهما من كثرة ترددهما على المكان، فأعد لهما المنضدة القصية التى تكاد الشمسية الكبيرة تغطيها. لقد كان سامى يستغل وجود هذه الشمسية أحيانا لاختلاس بعض القبلات المزيرة من سناء. وعند الجلوس تكرر المشهد الذى كان يحدث دائما حين تكون سناء ثائرة عليه، إذ حاولت أن تجلس على كرسى بعيد عن كرسيه، ولكنه أمسك بيدها مرة أخرى وأشار لها إلى الكرسى الملاصق له. وجلست مرغمة.

- هكذا كل شىء معك، بالإرغام. لابد لأى علاقة بين اثنين أن تكون اختيارية. هذا أول شرط فيها.

- قولى لى الآن ماذا تنوين أن تفعلى مع هذا الزميل الجديد. ما سمه على فكرة؟

- صفوت.

- الله، هكذا الأسماء والا فلا. والآن، ماذا ستفعلين؟

- وماذا سأفعل؟ سأعامله كزميل ليس إلا.

- لا، لا، هذا لا يكفى . أنك مرتبطة معى بأن تتركى هذا العمل بمن فيه وتنتقلى إلى عمل آخر . لقد اتفقنا على هذا سابقا.

- لقد اتفقنا على أننا لا نصلح لبعض، وكان من المنطقى أن نترك بعضنا بعضا فورا.

- ليس قبل أن تنتقلى من عملك . انك تريدين أن أتركك حتى يخلو لك الجو معهم. إذا لم أحصل عليك فلن يحصل عليك أحد منهم.

- هراء. هراء. حسين، والآن صفوت، وسابقا منصور وعادل. ما هذا التخريف. ولنفرض يا أخى أننى كنت أريد شيئا مما تدعيه، فما دخلك أنت؟

- ها، انك تكشفين نفسك بنفسك... اثنين كوكاكولا من فضلك... انك تعترفين... ويجب أن تخجلى من نفسك.

- أتسمى المناقشة اعترافا. على العموم فأنا لن أكون آسفة على تركك يا سامى. لقد جاوزت الحد. ومن قال لك إننى أريد كوكاكولا، هل ستسيقنى على كيفك؟

أى والله لقد جاوزت الحد يا سامى. ماذا تريد منها؟ أى نعم أنها تضايقك أحيانا، وتفعل أشياء لا تحبها، ولكن... ما الذى يجعلك تستعبدها هكذا بطلباتك العجيبة؟ أنك لم تتقدم لخطبتها، وحتى ذلك لم تفعله. ولكن كل شىء يبدو لعينيك منطقيا تماما : إذا كانت تحبك، فلماذا لا تنفذ كلامك حرفيا. وهاهى تهدد بتركك . هذا مجرد تهديد أعرفه جيدا. فأنت لن تهون عليها إلى هذا الحد. وأنت تعرف كيف تربطها بك بكل الوسائل. تبدو كالمدرب على هذه الأمور. وفوق ذلك فإنك تعتزم أن تبدأ حياة جديدة معها بعد أن تنتقل إلى عمل آخر لا تعرف شيئا عن زملائها فيه ولن تسألها عنهم.

سكون. هى أيضا تفكر... ما فى ذلك شك. والطبيعة حولكما هادئة مستقرة ساكنة. والجو حسن، والشمس ساطعة. وكل شىء هادئ.

كان الكازينو بهى المنظر، تفترش أرضيته الرمال الحمراء الأنيقة، وتلتمع فى أبهائه من كل ناحية الأزاهير من كل نوع ولون، والخضرة تتألق فى وسطها، ويلف كل ذلك نضارة لاحد لها. ولم يكن بالكازينو كثير من الناس، بل كان شبه خال كعادته أوقات الظهيرة، وكان الجرسونات متجمعين فى طرف بعيد ظليل لا يكادون يفعلون شيئا.

- يجب أن تنتقلى فورا من عملك هذا. لقد أصبح الموقف لا يطاق.

- وما مقابل انتقالى؟

- سوف أحقق لك أى رغبة تطلبينها.

- أطلب أن تتركنى.

- موافق.

- فما دمت توافق على أن ننفصل، ماذا يهمك من عملى؟ اعتبر الآن اننى غير موجودة فى هذه الوزارة ولنتفق على ألا نتقابل بعد ذلك.

- كلا، الأمر يختلف. إن انتقالك سوف يمكننى أن أنظر إلى علاقتنا نظرة موضوعية ويضعنى فى مكان أستطيع معه أن أعيش معك فى سلام.

- يا سلام! والله عال! انك تبدو منطقيا تماما. ولكنك تنسى أننى لم أعد أقبل أن أعيش معك.

- لقد كنت دائما أخشى ذلك. أن تؤثر المشكلات التى نمر بها الآن على حبك لى. لقد رجوتك أن تفهمى أننى لست "سامى" الطبيعى الآن، كما أن تصرفاتى الحالية معك ليست من طبيعتى. وحالما تنتقلين إلى عمل آخر سيختفى كل هذا وسأصبح "سامى" القديم. أنسيتنى يا سناء؟ أنسيتى "سامى" الذى تحبينه؟

- الذى كنت أحبه.

- الذى كنت تحبينه والذى سوف تحبينه أيضا، ولكن بعد أن تنفذى كلامى. ماذا فعلت اليوم وأمس فى موضوع النقل؟

- لقد تقدمت بطلب النقل، ورجوت المدير أن يساعدنى على اتمامه، وقد ودعنى خيرا. ولابد أن أذهب إلى الوزارة الأخرى لترتيب الأمر.

- ولكن ذلك سيتطلب وقتا ما فى ذلك من شك.

- طبعا.

- وإلى أن يتم النقل، لابد أن تنفذى كلامى.

- المعقول منه فقط. أنك تطلب أحيانا ما هو مستحيل.

- أجل. ولكن، هذا الشاب الجديد؟ يجب أن تنتقلى إلى حجرة أخرى.

- ليست هناك حجرة إلا وفيها أحد الشبان.

- إذن ما العمل؟

- سأعامله كزميل.

- هذا مستحيل.

اتخذت الصور مرة أخرى هيئات مغايرة. لا حل. لا منفذ. تحول سكون الطبيعة وهدوؤها إلى غليان فى صدره وعقله، وتغاير اللون الأخضر أمام عينيه فاكتسى غلالة حمراء فاقعة. وتذكر جهنمية بنى سويف.

- يجب ألا تحاديثه على الإطلاق.

- كيف؟ هذا هو المستحيل حقا.

- هذا ضرورى. افعلى أى شىء لتحقيق ذلك. قولى له انك لا تريدينه أن يكلمك.

- هكذا من الباب للطاق؟ وإذا سألنى عن السبب؟

- لا سبب. هل أنت مكلفة بأن تفسرى سلوكك للناس؟

- وهل هذا سلوك طبيعى؟ أنه سلوك مجانين. وماذا سيقولون عنى؟

- وهل يهمك زملاء العمل؟ إذا كان الأمر كذلك فالموضوع يختلف!

- عدنا إلى الهراء.

- إذن كلمينى بصراحة. أريد أن تصارحينى بحقيقة نواياك.

- الحقيقة هى ما أقوله لك الآن. طالبنى بالممكن وليس بالمستحيل.

(يوم رأيت عددا من قطع الحلوى فى حقيبة يدها، وسألتها عن كل تلك الحلوى، فقالت فى بساطة - ولم يكن موضوع حسين

قد أصبح موضع مناقشة بعد - هذه لحسين وسلوى، أن "حسين" يحب السمسمية كثيرا وقد طلب منى أن أحضر له بعضا منها).

- يجب ألا تحادثى "صفوت" هذا على الإطلاق.
- لا أستطيع.
- قولى لزميلتك سلوى أن تخبره بألا يحادثك.
- وإذا سألتنى عن السبب؟
- السبب ، السبب، انك تخشين أفكارهم ولا يهمك أن تغضبينى.
- أننا نعيش فى مجتمع وسط الناس ولسنا نعيش وحدنا فى غابة.
- أنك تبررين إغضابك لى ليس إلا.

(ويوم استرسلت فى حديثها عن حسين وعن سلوكه فى العمل ومهارته فى تصريف الشئون وإعجاب الجميع فى الإدارة به مما دفعك إلى التريقة عليه والتهوين من شأنه، بل وشتمه ، مما استنفر همة سناء وثارت ثورة عارمة وصاحت بك ألا تسب زملاءها الذين يعملون معها فى المكتب).

- وإذا لم أتمكن من مفاتحة سلوى فى ذلك؟
- لابد أن تتمكنى. حاولى بكل قوتك.
- وإذا لم تقبل.
- اضغطى عليها. قولى لها إن الأمر مهم جدا.

(ويوم كنا نتناقش فى الأزياء، وأشرت عليها أن تشترى "توينز" رماديا فاتحا لأننى أحب هذا اللون، وقلت لها أنه يليق جدا

عليها لأنها بيضاء. وكنت أعتزم أيامها أن أفصل بدلة جديدة فطلبت منها أن تقترح على اللون. فقالت أننى لابد أن أشترى قماش "جرسيه" بنيا أو رماديا وأفصل منه "جاكت سبور"، لأن "حسين" زميلهم لديه واحدة من هذا النوع، وهى شيك جدا وتلائمه تماما وأثارت إعجاب الجميع).

- سأحاول أن أفعل ذلك.

- لا تكفى المحاولة. عدينى أنك ستبذلين كل ما فى طاقتك.

- يا سلام! كأنما هى محاولة الصعود إلى القمر.

- عدينى.

- أو كأنه يتعلق بالأسرار الذرية أو سلامة البلاد.

- عدينى.

- حاضر يا سيدى. أعدك.

- أكملى.

- أعدك بأن أبذل كل ما فى طاقتى.

(وذلك اليوم العصيب فى حياتك. يوم جاءت سناء فرحة خفيفة تضحك بمناسبة وبلا مناسبة. لقد انتقلت يومها للعمل مع حسين. أخيرا تفتحى يا جراحى. وأنت يا دمى، مالك تهدر فى عروقى حتى كأنها ستنفجر. وبعد كل هذا تتعجب لأنى أخاف عليها منه).

- لقد وعدتك ، فلماذا تكشر هكذا؟

- أنما تذكرت شيئا. ولكن ، كيف أعرف أنك قد نفذت وعدك؟

- ها، ها، أنك تريد أن تكون "يوبيكويتاس" . لقد علمتنى أنت هذه الكلمة الإنجليزية. لا تهذر هكذا.

- اننى لا أهذر. كيف سأعرف؟ سأحضر عندكم يوما لأرى كيف تعاملينه وهل تكلمينه أم لا.

- ولم لا. أهلا وسهلا. ولكنك قلت ذلك من قبل ولم تحضر.

- إذن سأجعلك تحلفين أنك لن تحادثه ولو بكلمة واحدة.

- لا مانع.

- سأكتب صيغة القسم وأحضره لك غدا لتقوليه أمامى.

- حاضر.

أخيرا ، بعض الهدوء فى روحى. ها أنا اضطجع فى مقعدى وأمدد أطرافى . السكون يلف الحديثة . وعلى اليمين ، يسبح مركب هفاف الشراع، بينما رجال يغنون فى راحة واسترخاء. ليتنى مثلهم أجوب البحار السبعة، ويكون لى فى كل مرفاً وجه حبيب إلى قلبى وعينى. صوت سناء مرة أخرى.

- لا أدرى ما الذى يجعلنى أطيعك فى كل هذه الأوهام.

- لأنك تعرفين أننى أحبك حبا فائقا.

- ليس هذا حبا.

- ولأنك تحبيننى أيضا.

– هه... أى حب هذا . كان الحب زمان . حين كنت "سامى" بتاع زمان. كنت حقا أ...

(وطافت بخياله مسارح حبهما فى لحظة خاطفة بارقة. جلساتكما الأولى فى شرفة "سميراميس "وصالة" شبرد" ، فى الصبحات الباكرة وكل شىء يلمع بالصدق والنقاء والأصالة، وأنت تنظر إليها، تلك التى سحرتك دوما. وجولاتكما فى الهرم حيث لم يكن يشغل فكرى إلا أرضاؤها بأى ثمن كيما تقترب منى بقلبها وعقلها. وإفطارات "الهيلتون" النقية، وانتقالات الأوتوبيس النهرى التى تتلوها، ونحن نتألق على صفحة المياه وقلبى دافئ من انطباع عينى سناء عليه وقد أفعم بالجمال المتورد. وتجوالات حديقة الحيوانات الناضرة، وقد كنت معتادا أن أطلق أسماء وهمية على أماكن الحديقة وأحاول أن أوهم "سناء" بأنها أسماء حقيقية، منها ممر العشاق المفضى إلى كافيتيريا هاواى، وطلبت منها أن نسير فيه ما دمنا عاشقين، وجذبتها إليه، وسارت وهى خاشعة كأنما هى تمر بطقس من طقوس الحب المقدسة. والسلحفاة وحبك لها وسخرية سناء من هذا الكلف بالسحلفاة، وأصبح موضوع فكاهة بيننا، حين تلقدنى وأنا أقف مبهورا أمام عدد منها وأقول: "انظرى، انظرى، أنها كالحجر المتحرك ، طبيعة ميتة أثرية تدب فيها الحياة".

يومها كان حبنا نقيا فعلا، نقيا من وجهة نظر الخلافات والمشكلات. كان منعشا رطيبا ، كالصبح الذى صحت الدنيا عليه فى معبد الكرنك.

ويوم نزلتما من كافيتريا هاواى بعد أن تبادلتما القبلات وكانت الحديقة تغمرها أشعة الشمس المتلألئة المنعشة ، وعبرتما الجسر الصغير المقام على إحدى القنوات التى ترين عليها النباتات المائية الخضراء، وإذا مياه القناة تحت الجسر مغبرة رمادية، تنفذ منها أشعة الشمس حتى لتصل إلى قاعها، ونقف أنا وسناء لننظر من فوق الجسر إلى قاع القناة، ثم إذا بها تصبح بى هاتفة أن أنظر إلى الاتجاه الآخر، جذلة فرحة، طفلة تهتف بصديقها وحبيبها، فقد كان هناك ثعبان ماء كبير يلف ويدور حول نفسه لاهيا بين الأعشاب المائية.

ويوم ذهبتما إلى القناطر الخيرية، وكانت متعبة، وأحنوت عليها حنانا غريبا، كأنمكا زوج وزوجته ، أو أب وابنته، حنان دافق انتابك يومها عليها، كأنك تحرسها. وتجولتما وسط الحدائق والبساتين المزهرة فى بداية أيام الربيع الغامرة، وكنت تمسك بيدها، تخاف عليها من كل شىء . وجلستما فى مكان هناك، وملت عليها فى صمت ساكن يتكلم بكل اللغات، وتماست شفتاكما فى جو من السحر والهالات الوضاءة).

والتقط بقية عبارة سناء...

- ... أيامها كنت أحبك.

- قلتها أخيرا، ولكن بعد أن تغيرت الظروف. قلتها بعد أن مضى زمانها. تقولينها على أنها شىء من الماضى. لماذا لم تقوليها لى أيامها؟ لماذا كنت دائما تخشين من التصريح لى بحبك؟ كم كان الأمر سيتغير حينذاك إذا كنت قد تأكدت يقينا من حبك لى.

- يتغير أو لا يتغير. لقد انتهى الأمر الآن. خرج من أيدينا.

- انتهى. خرج من أيدينا. ولكن كان يجب أن تخبرينى وتصرحى لى بحبك حين كنت أستحق ذلك . لقد كنت أشك فى ذلك طوال الوقت. حتى بدأت الغيوم تنعقد، فتركت شكى واهتممت بأفكارك وأعمالك . قد يكون سبب عدم وثوقى من عاطفتك هو الذى صبغ عينى باللون الأصفر العميق وسمح لتلك المخلوقة الشوهاء الخضراء التى ذكرها شكسبير أن تنغص على حياتى معك.

- لقد يكون هذا صحيحا، لن تتأكد من ذلك. ولكن المؤكد أنك قد دمرت عاطفتى نحوك باعمالك وتصرفاتك معى. لقد كانت تجربة أليمة، وسيمضى وقت طويل قبل أن أتخلص من آثارها. وكل ما أرجوه هو أن نصفى علاقتنا هذه بأسرع ما يمكن ويمضى كل واحد منا فى طريقه، وننهى ما كان.

- هذا ما نفعل الآن.

- وساحاول أن ابنى حياتى من جديد. وقد عرفت أن هناك امتحانا للالتحاق بالسلك الدبلوماسى فى وزارة الخارجية سيعقد قريبا، وأنا استعد له بكل طاقتى، ولدى أمل كبير إن شاء الله فى النجاح فيه حتى أحقق أمنية حياتى فى السفر إلى الخارج والطواف بالعالم. لسوف أغير كل شىء.

أما أنا، سامى، فلم يبق لى إلا شارع النيل والأشجار العتيقة على جانبيه، ومياه النيل السمراء المخضوضرة تلتمع فى

ناظرى، بينما أسير على الشاطئ الطويل، وألمح على البعد صف العربات وهى تترى على امتداد كوبرى الجلاء، وجنود من الجيش يقفون شاكى السلاح على رصيف الكوبرى.

-5-

ثم اختفت عنه ولا يدرى لأين
ببساطة لم تأت فى الميعاد. كانا عاشقين
والحب فى هذا الزمان
مسافر ياتى ويرحل فجأة عنا، ولا ندرى لأين.

"حسب الشيخ جعفر"
مجلة الآداب 1964

نهضا متثاقلين من حديقة الكازينو بعد أن دفع الحساب. وكانت الدنيا قد تغلفت كلها بذرات شمس الساعة الثالثة. سارت سناء أمام سامى فأتاحت له أن يراها فى وسط إطار من الطبيعة الخضراء الحية. لطالما مثلت له مركز الكون، مركز كونه هو، وها هو يستعيد تلك الفكرة ويجد لها تجسيدا صادقا صامتا، ولكن الظروف تغيرت، وأصبح كل منهما يسعى لتصفية العلاقة التى كانت لهما نورا من قبل.

سارا عبر الممر الطويل المفروش بالرمل الأحمر. وكاد سامى يمد يده ليجذب ذراع سناء إليه ويشبكه بذراعه على طريقة أهل العشق والغرام القاهريين ، كان متعودا أن يفعل ذلك فى الأيام الخوالى، ولكنه تذكر فى آخر لحظة أنهما عاشقان سابقان. وعاد إلى ذهنه - بارقا - الموقف العاصف الذى كان لايزال يشيع الاضطراب فى حواسه، فأعاد ذراعه إلى مكانها وعلى شفتيه ابتسامة باهتة. وتذكر كذلك كيف كان أحيانا ينتهز فرصة خلو الممر من الناس فيعمد إلى ضرب سناء ضربة خفيفة أسفل ظهرها براحة يده، بينما هى يغمرها الخجل أن يراهما أحد فيحدث مالا تحمد عقباه . واتسعت الابتسامة الباهتة.

ولم يجرؤ أحد منهما أن يبدأ الآخر حديثا، غير العبارات الاضطرارية الهامسة، مثل: أى أوتوبيس ستأخذين، أين ستذهبين ومثل ذلك من روتين الحديث. وظلا كذلك إلى حين وقفا على محطة الأوتوبيس. كانا كأى عاشقين، لا يكاد أحد يخمن أنهما قد

خرجا لتوهما من مشاجرة حامية . وجاء الأوتوبيس فرجته بصوت خافت ألا يصعد معها.

- ولكن يجب أن أوصلك.

- لا تهتم بذلك . اننى أنا التى أطلب منك ذلك.

- على راحتك. سأراك غدا. نفس المكان فى نفس الوقت.

وركبت الأوتوبيس . وأشار إليها محييا فردت عليه بابتسامة واهنة.

أنا وحدى مرة أخرى . أخيرا وحدى بعد طول المعاناة مع أخرين . أستطيع الآن أن أتنفس بعمق وأن أناقش نفسى الحساب، على مهل، وفى جمالية منبسطة حدودها السماء والأرض واللازمن.

وخرج مرة أخرى إلى شارع المنيل العريض، وسار تكتنفه هذه الأفكار المتشائمة السوداء بينما الشمس تسطع على الطريق وعلى الناس. وتذكر الشمس المنيرة السوداء فابتسم ابتسامة أدبية. وسار كأنما فى غيبوبة فى طريقه المعتاد، عابرا الكوبرى مرة أخرى ، ثم متخطيا شارع القصر العينى بطوله ، ومضى يجرجر ساقيه فيه حتى ميدان التحرير. وفى زاوية من الميدان رأى شحاذا مهلهل الثياب يقبع فى ذلة واستكانة وقد تكور جسده بينما سكنت عينيه نظرة تتضرع بالسؤال . لابد أن هذا الرجل لم يأكل منذ مدة طويلة، والناس يمرون عليه فى لهوهم ومراحهم دون أن يعنيهم أمره فى قليل أو كثير. هل تذهب لتأكل وأنت تعلم أنه يجب عليك أن تقتسم طعامك مع هذا الرجل الجائع.

وبحث فى جيبه عن قطعة نقود من ذات الخمسة قروش، وانحرف فجأة وقد وازى الشحاذ ومد يده بقطعة النقود ليعطيها له. وكأنما فوجئ الرجل بحركة سامى، إذ أخرج يده مسرعا من مكمنها ليتلقى الإحسان، وكانت يده المتسخة تقبض على سيجارة فى منتصفها . هكذا يدخن ويخدع المارة من طيبى القلوب وممن هم "على نياتهم" عن حقيقة أمره . لابد أن يكون مصير هذا الشلن مزيدا من السجائر المشتراه، وربما تكون له أسرة من زوجة وأطفال هم أجدر منه بهذه النقود. ولكن، سبق السيف العذل، إذ استقرت الحسنة فى لحظة فى يد الرجل، فأطبق عليها بسرعة بينما هو يخفى السيجارة فى نفس الوقت كأنما قرأ أفكار سامى وأنه رأى أن مظهر الحاجة والجوع لا يتفق مع ظهوره بمظهر المدخن. ذهبت النقود بعد أن خطر فى بال سامى أن يستعيد يده ولا يعطى الرجل شيئا. ولم ينبس الشحاذ بكلمة ، ولا حتى للشكر، إذ أحس من نظرات سامى إليه بأن أمره قد افتضح ، ولكنه لم يأبه بشىء مادام قد نال مبتغاه. واستقام جسد سامى مرة أخرى وواصل سيره فى خيبة أمل مشوبة بالأسف. ما بال كل شىء اليوم ينتهى إلى إحباط وهزيمة ونكسة؟

ومال إلى المحل الذى يأكل فيه دائما كلما اعتزم قضاء اليوم كله فى وسط المدينة دون أن يعود إلى المنزل لتناول طعام الغداء. كلاريدج. وجلس إلى إحدى الموائد وطلب طبقا من المكرونة بالفرن وسندوتشين من الكبدة، مع زجاجة من الكوكاكولا. ومضى يمضغ الطعام فى حركات آلية حتى يفرغ من

تلك العملية بأسرع ما يمكن. وتذكر حين رأى أحد الأشخاص على باب المحل أن ستيفن ديدالوس كان يشعر بالغثيان من منظر الطاعمين فى المحال العامة. والمطعم الذى اعتاد "ميرسو" تناول طعامه فيه. هل أصبحت مثلهما؟ لابد أن أسرع حتى أتفق على تصوير دبلوم اللغة الأسبانية لأعيدها غدا إلى الشركة، لعل وعسى.

وانتهى من طعامه ودفع الحساب المعتاد والبقشيش المعهود للجرسون الذى أسرع ينظف المائدة ليستقبل زبائن جددا، بينما هرول سامى إلى الخارج ليستقبل الضوء من جديد وحركة الناس وزحام السيارات. وعبر الميدان الصغير أمام المحل ليدخل إلى شارع سليمان. واختار كعادته الطوار الأيمن، ليلقى نظرة فى أوله على الحسناء التى يعلم فى فرع شركة طيران هناك، والتى كان يعمل أنها صديقة صاحبه بديع وأن علاقتهما متطورة وصافية.

وطاف بالمحلات وهو يتقدم فى سيره ، شاخصا إلى ما يرى من ثياب ومأكولات وجرائد ومقاه، وتوقف عند محل تخصص فى بيع وتفصيل القمصان الأفرنجية ، وتساءل متى سيشترى القميص الأبيض الحريرى الذى طالما رآه فى الفترينة. كانت سناء قد عابت عليه مرة ذلك القميص الرمادى الذى يحبه ، وقالت أنه "بلدى جدا ولا يصح أن ترتديه"، مما جعله يقرر ألا يرتديه أبدا حين يذهب لمقابلتها. كانت تعارضه دائما، ولا تلتقى أذواقهما أبدا. كانت تنفر من الدراسات التى يحبها ، ولا يعنيها إلا

أن ترى اسمه منشورا فى المجلات الأدبية ، دون أن تقرأ أى حرف مما يكتب. ولم تكن تتفهم انهماكه فى قراءة القرآن الكريم فى الفترات التى كان ينتظرها فيها، أو أن يناقشها فى بعض آياته. حقا، أن أكثر الناس الهاما للفنانين والشعراء هم أبعدهم عن ذلك الفن وذلك الشعر.

كانت ثمة حلقات من الناس مجتمعة حول الأكشاك التى تتناثر هنا وهناك على طول شارع سليمان، تنصت إلى الراديو يذيع بعض البيانات العسكرية عن معارك دارت مع العدو، وعن طائرات سقطت، وحرائق اندلعت.

وأفاق من رحلاته النفسية أمام المحل الذى قصده فى شارع فؤاد لتصوير الشهادة . كان محلا صغيرا أنيقا وسط محلات أخرى فى حجمه، ومنها محل الأحذية الشهير الذى كان يتعامل معه فى أوائل سنوات الجامعة. ودلف إلى محل التصوير، فلم يجد أحدا فيه فى بادئ الأمر، والستائر مسدلة لتجنب شمس الثالثة والنصف التى تؤثر على المعروضات الخارجية . وترامت إلى سمعه همسات ضاحكة من الداخل ، لفتاة ، ثم حركات سريعة أعقبها ضحك صاخب ووقع خطوات تجرى، دخلت على أثره الفتاة مضطربة بعض الشىء، وبلوزتها مفتوحة من أعلاها. وفوجئت الفتاة بوجود سامى فى المحل، بينما خداها قد اشتعلا بالدماء، ولاحت فى عينيها نظرات متوهجة يعرفها سامى جيدا. أهكذا تستر أماكن العمل مثل هذا العبث، ويستغل أناس حسين أو صفوت العمل لكى يتعرفوا على فتيات بريئات مثل سناء

ويضايقوهن. ولكن هاهى هذه الفتاة تتجاوب مع من كان معها فى الجزء الخلفى المستور من المحل. ومن يدريك أن هذا لا يحدث مع حبيبتك؟ من لى الآن بمن يخلصنى من هذه الحياة السقيمة التى فاقت عبثيتها كل حدود.

ودنت منه الفتاة من وراء النضد دون أى خجل من كشفه لسترها، فمد يده لها بالشهادة وتعثرت كلمات على شفتية بأنه يريد صورة لها. وقلبت الفتاة الشهادة بين يديها ثم قالت: "أربعين قرش". وبدا له المبلغ كبيرا، وناقشها فيه ولكنها ذكرت له أن التصوير يتم فوتوغرافيا وبأحدث الآلات. وخرج فى تلك اللحظة شاب من الداخل وهو يمشك شعره ثم يضع المشط فى جيب بنطلونه الخلفى. أهذا أنت يا حبيب ديدمونة؟ وأين المنديل؟.

ولم يجد بدا من الموافقة، ولكنه طلب أن يتسلم الصورة والأصل فى نفس اليوم حيث سيحتاجهما صباح الغد، فأخبرته الفتاة أن بإمكانه المرور قبل الحادية عشرة مساء موعد إغلاق المحل وستكون الصورة جاهزة. وخرج الشاب إلى الطريق دون كلمة، بينما دخلت المحل سيدتان تحملان أوراقا فى إيديهما. وتوجهت الفتاة إلى المكتب ووضعت الشهادة الأصلية فى مظروف كبير وأخرجت دفترا من الدرج وحررت إيصالا تسلمه منها سامى بعد أن دفع الأربعين قرشا. ونظر إلى عينى الفتاة وخيل إليه أن ظلال الرغبة كانت لا تزال تتقد فى عينيها الصغيرتين.

-6-

ووجهت قلبى إلى معرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل. فعرفت أن هذا أيضا قبض الريح. لأن فى كثرة الحكمة كثرة الغم والذى يزيد علما يزيد غما.

"سفر الجامعة"

جلس فى جروبى سليمان وهو سعيد أن قد أنهى كثيرا من المهام التى كانت تثقل عليه منذ الصباح، ولهذا يحق له أن يخصص بقية اليوم للراحة ولملاقاة الأصدقاء. كان قد اتفق مع توفيق على اللقاء هنا فى الساعة الرابعة، ومازال أمامه بعض الوقت إلى أن يحضر ، هذا إذا حضر فى الميعاد. ولكن توفيقا على كل حال أفضل من صديقه الآخر عبد الحميد، الذى يتعاهدان دائما على اللقاء وعلى تأكيد الموعد ، وهو يعلم تماما أنه لن يحضر أبدا، وتعود منه سامى ذلك وأخذه على علاته وبات يلعب اللعبة جيدا معه.

وفتح حقيبته الجلدية إياها وأخرج منها عدة كتب وصحف كان قد اشتراها من مكتبة الميدان المشهورة ، وأخذ يستعرضها متصفحا بعضها فى انتظار وصول القهوة باللبن.

كان المكان غاصا بالناس، ومعظم الوجوه مألوفة . السيدة التى تجلس وحدها دائما وتحضر فى ساعة معينة كل يوم. لابد أنها تعمل فى أحد محلات وسط البلد، أو ربما هى صاحبته. وذلك الفتى الغريب الذى دأب على رؤيته سنوات عديدة يجلس فى نفس المكان وينظر حواليه نظرات مريبة . وتلك المجموعة من الشبان، من إحدى البلاد العربية، التى تجلس وتهرج وتلاحق الفتيات بالنظرات والتلعيقات الخفيفة . كانت ثمة ألفة تجمع بين هؤلاء المترددين الدائمين على هذا المكان، فكثيرا ما يحيى بعضهم البعض أو يتبادلون بعض الحديث العارض، أما هو فكان يبدو غريبا فى وسط هذه المجموعة، فلم يحدث أبدا أن بادل جارا

حديثا حتى لو أدلى ذلك الجار بتعليق ما عابر، فلا يمكن أن يجيبه بأكثر من ابتسامة عارضة لاشخصانية بلهاء، يعود بعدها إلى الاستغراق إما فى قراءاته أو فى تأملاته.

وألقى بعينيه إلى الجانب الأيسر، وسرعان ما تهللت جوانحه الداخلية بغتة، إذ أنهما وقعتا على حوريتين خرجتا لتوهما من بحار السحر، من ذلك النوع الذى يلفت دائما نظره، وعرفه عنه جميع أصدقائه المقربين. إذن سيكون وقتا ممتعا ذلك الذى سيقضيه هذا الأصيل، فمن النادر أن تجئ جلسته فى مواجهة هذه الفضة المذابةالتى يعشقها، هذا الجمال الكامل الذى يهزه ويشد عينيه وجوارحه.

وكان ما يزيد ما يزيد فى الجو الذى يحيط بهاتين الفتاتين، ألوان الملابس التى يرتديانها، إذ كانت متسقة فيما بينها، مما يدل على حسن الذوق ورهافة الحس. ويبدو أن إحدى الفتاتين، وهى ما كان سامى يراها أجمل من الأخرى ، قد أحست أنه يطيل النظر إليها، إذ سرعان ما تلاقت نظراتهما، ثم انفجرت ضاحكة وهى تميل على زميلتها وتهمس لها بكلمات جعلتهما يضحكان معا فى سرور وحبور. وزاد هذا من بهجة الموقف، وأيقن صاحبنا أنه لابد خارج من هذا الأصيل بصحبة جميلة قد تمتد وتدوم.

حقا سيكون ذلك حق تعويض عن انفراط عقد علاقتى مع سناء فمن يدرى. دائما حين تغرب الشمس، يطلع القمر، ثم تشرق الشمس ثانية. همنجواى وأسبانيا. ورغبات محبطة فى مشاهدة

مصارعة الثيران فى بلدها الأصلى. شمس غاربة وقمر طالع. إذن لن أخشى شيئا، ولتذهب سناء مادام يوجد غيرها. لابد أن ...

- القهوة باللبن يا أستاذ...
- شكرا. تفضل...
- الباقى... شكرا.

يجب أن أبذل كل جهدى للتعرف على هذه الغادة، فمثل هذه الفرصة لا تتكرر كثيرا هذه الأيام. هاهى تبتسم مرة أخرى. انها فى جيبى هذه الفتاة . ولكن، كيف أبدأ الحديث معها. أنها تشجعنى ولا ريب. فلأتظاهر بالقراءة وأبادلها الضحك. ثم أسألها عن الساعة. أو ربما أطلب منها قطعة من السكر.

"أفراد الصاعقة المصرية يعبرون القناة. من مراسل الأهرام فى الجبهة. اجتماع هام بين القادة".

ها أنا أنظر إليها من وراء الجريدة وابتسم ، ويبدو أنها رأت فى هذا الموقف شيئا مسليا، فهى تحاول أن تكتم الضحك فلا تستطيع ، وتطفر عيناها بالدموع وتتصاعد الدماء إلى وجنتيها اللتين قتل الورد نفسه حسدا منهما. إنها لى هذه الفتاة حتما. لقد تم الاتصال الروحى. فلتهنأ روحى بها.

"شاب يقتل زوجته ويحاول الانتحار بعد أن طلبت منه الطلاق". "البحث عن النشالين الخطرين فى القاهرة".

لابد من اتخاذ خطوة عملية الآن. إما الآن أو لن يكون أبدا. ينتظرنى مستقبل عظيم مع هذه الفتاة. ربما نتقابل كل جمعة. إذن ماذا أفعل بالشلة التى أتقابل معها كل يوم جمعة؟ لا يهم.

أضحى بكل شىء من أجل هذه العيون ومن أجل هذه الابتسامة. وربما أقابلها مرتين فى الأسبوع، أو من يدرى ، كل يوم، كما أفعل مع سناء. ولكن ستكون العلاقة مختلفة تماما هذه المرة، فسأجعلها هى التى تحبنى وتطلب لقائى كل يوم، وهى التى ستشعر بالغيرة إذا تحدثت مع أى فتاة أخرى ولست أنا. وسنذهب إلى رحلات خارج القاهرة، إلى حلوان ، والقناطر الخيرية، وربما الإسكندرية. أو ربما يكون عندها سيارة فنستقلها سويا، وتكون هى إلى عجلة القيادة بينما أنا أطالع الصحف، أو أقرأ كتابا، وتنظر لى معجبة أنها عرفت شابا جادا مثقفا يهتم بالكتب والفن. لابد أن أحادثها الآن، انتقل إلى مائدتها وأطلب منها شيئا أو أطلب منها أن تسمح لى بالجلوس معها. وسنذهب كثيرا إلى السينما، وإلى جروبى ، وسميراميس ، والهلتون، وربما تدعونى إلى بيتها، وربما...

وداهم سامى شبح شابين ينهضان من المائدة المجاورة له، ولم يكن قد رآهما ولا التفت إلى وجودهما من قبل، ويسحبان كرسيهما ليجلسا إلى مائدة الحوريتين. كارثة داهمة. وانقطع حبل طويل متين كان يشد "سامى" إلى حياة الوهم. وفجأة يكتشف سامى ثقبا صغيرا جدا فى سماء وردية تحيط بهم كل جانب، ثم يهبط سقفها رويدا رويدا ليغطيه فلا يستطيع منه فكاكا.

من أين جاء هذان الشبان؟ وأى قوة تلك التى جعلتهما ينهضان ليصادقا فتاته من دونه؟ وكيف سبقاه؟ لقد كانت الفتاة تضحك له ما فى ذلك ريب. هل ظن أحد هذين الشابين أنها

تضحك له؟ لابد أنهما أخطأ الطريق، ولابد أن الفتاتين ستطردانهما. فلننتظر وننظر...

ولكن الفتاتين كانتا تضحكان من قلبيهما وتحادثان الشابين فى مرح وسعادة ظاهرين، ولم تعد الفتاة الأجمل تنظر ناحية سامى ولم تلتق عيونهم بعد ذلك. أهذا واقع أم حلم؟ لابد أنه قد حدث شىء ما، شىء هائل فظيع لا يتسطيع سامى له تفسيرا . لابد أن يعود إلى عالمه ويترك هذه الأوهام والخيالات ، فلن يكون لديه على أية حال وقت يقضيه مع هذه الفتاة أو غيرها، وذلك حين يحل مشاكله مع سناء ويتفرغ لقراءته وكتاباته.

"حرب الاستنزاف ستعمل على تحريك القضية فى نهاية الأمر"

"الاتحاد السوفيتى يعرب عن تأييده الكامل للمصير العربى"

"مهما ازداد الظلام، فسينبلج الفجر أخيرا"...

– لقد تأخرت عليك كثيرا

– أهلا توفيق... لا يهم مادمت جالسا هنا... ماذا تحمل من كنوز؟

كان توفيق صديق سامى الصدوق. وكان يمثل طرازا فريدا بين رفاق تلك الفترة. أهم ما يميزه عدم الإكتراث الهائل. كأنه "ميرسو" فى الفترة الأولى من حياته. ولكنه رغم ذلك جاد فى اتخاذ مواقفه وقراراته. كان مثلا يرفض رفضا تاما وظيفته فى دار الكتب وينتظر اليوم الذى يتركها فيه كيما يعمل فى الخارج.

وهو يحلم بذلك. وأن نسى سامى فهو لا ينسى عبارته الشهيرة بأنه يفضل أن يعمل جرسونا فى الخارج على وظيفته هذه التى ستقتله. شيء هائل فظيع . آه يا وطنى العزيز. أنها ظروف ليس إلا. الوطن هو الوطن الغالى، ولكن الظروف هى التى تدفعنا إلى تلك المواقف.

ولكن توفيقا كان يهتم كثيرا بالحركة الأدبية، ومشهورا عنه بين أصدقائه عشقه لكتابات د. هـ. لورنس وقد نشر منذ قليل مقالا عنه.

جاء كعادته، عاصفا، لا مكترثا، ينظر حواله على عينيه تقعان على أحد معارفه، أو على فتاة جميلة. وقال لسامى حين رأى الحوريتين على المائدة المقابلة.

– قفشتك! لقد تعمدت طبعا الجلوس بالقرب من كل هذا الجمال.

وضحك سامى، وأحس هو وحده بما فى عبارة صديقه من سخرية وتورية تراجيديتين لم يقصدهما الصديق. ومد سامى ذراعه إلى الكنوز التى كان توفيق يحملها ووضعها على المائدة، ولم تكن سوى بعض المجلات والكتب التى نادرا ما كان توفيق يسير بدونها، شانه شأن سامى. وكانت المجلات كلها باللغة الإنجليزية.

وجلس توفيق وطلب فنجانا من القهوة السادة، كعادته، ثم غرق فى كتاب كان يحمله، بينما أخذ سامى يتصفح المجلات فى صمت.

وأزاح المجلة من عينيه، وتطلع إلى توفيق، وكان الكتاب الذى يقرأه مترجما إلى العربية عن ألبير كامى.

- ها، أخيرا اعترفت بضرورة قراءة "كامى" وبأهميته. أنى سعيد جدا بذلك. لقد كنت ترفضه رفضا باتا.

- ذلك لأنه كان يبدو لى دائما دون محتوى اجتماعى وسياسى. دائما فكرى خالص وفلسفى.

- مرة أخرى ذلك المحتوى الاجتماعى الذى تسعى وراءه دائما. أن الأدب الخلاق يختلف عن الدراسات الاجتماعية والسياسية المباشرة. لماذا لا تقرأ كتبا فى الاجتماع أو السياسة إذا كنت تريد ذلك؟

- ولكن مزج الأدب بالمفاهيم الاجتماعية والسياسية هام جدا. "سارتر" مثلا كاتب عظيم، ومعظم كتبه ذات محتوى سياسى مباشر.

- ولهذا السبب بالضبط أفضل أنا "كامى" عليه. أن "سارتر" فيلسوف سياسى يكتب أدبا ، بينما كامى أديب صرف. ولكن لا تنسى أن لكامى أيضا مفاهيمه السياسية والاجتماعية ، ولكنها تختفى بين ثنايا أدبه الخلاق وهى ليست مباشرة.

- ولكن... بالله عليك ماذا يريد كامى أن يقول فى رواية: "السقوط"؟

- ماذا يريد أن يقول، ماذا يريد أن يقول! أنه يريد أن يقول كل ما هو موجود فى الكتاب، من أول "هل أستطيع أن أعرض خدماتى يا سيدى"، حتى "لقد فات الأوان الآن، وسيفوت على الدوام لحسن الحظ" . لا يمكن أن تستخرج ملخصا من هذا الكتاب وتقول أنه الكتاب. وهذا هو سر عظمة هذه الكتب وخلود كاتبيها هذه الكتب ترفض التلخيص.

- يبدو أنك قد تخصصت فى كامى أيضا.

- ها أنت تسخر من جديد. أن الخلق الفنى لا يتجزأ ، وهو لا يبتعد عن الحياة ولا عن النفس الإنسانية ولا عن المجتمع. ولكن على الفنان ألا ينطلق فى خلقه الفنى من نقاط اجتماعية أو نفسية أو سياسية بحتة ، لأن ذلك يضر بالعملية الإبداعية ، ويجعل العمل الفنى أشبه بالوثائق الدراسية . والنقد ليس هو الآخر حكما نهائيا على العمل الفنى، بل هو يفسره ويشرحه ويعلق عليه، ويبين خفاياه الجمالية للقارئ الذى قد تفوته تلك الأشياء. وهكذا لابد للناقد أن يصير "قاضيا تائبا" كما قال كامى عن بطل "السقوط"، أن يكف عن إصدار الأحكام على الأشياء، فكل شىء نسبى، والإنسان عاجز عن إصدار أحكام مطلقة.

- هه، ما علينا. لسوف أدع "كاميك" هذا الذى لا أستسيغه وأقرأ مقالا ورد فى إحدى المجلات التى اشتريتها لتوى.

- لابد أنه عن لورنس.

- وكيف عرفت ؟ الحقيقة أن كاتبه من الثقات فى هذا الموضوع، وكنت تواقا إلى معرفة رأيه عن بعض جوانب حياة

لورنس، وها قد حصلت أخيرا على مقال له. أنه "الدنجتون"، هل تعرفه؟

- كلا ، لا أظن. اننى سىء جدا فى معرفة أسماء النقاد أو حفظها ، أو حتى الاهتمام بها. وهذا خطأ بطبيعة الحال، فأنا أحيانا أشترى الكتاب مرتين نتيجة جعلى باسم كاتبه.

وتهيأ توفيق للقراءة، بينما مد سامى يده إلى كتاب كامى، الذى كان يعرفه جيدا، وأخذ يقلب صفحاته، ويبتسم إذ يتذكر عبارات كان قد قرأها قديما فى هذا الكتاب المترجم.

"لئن كانت الطبيعة مألوفة لدينا، فذلك لأننا نرسم على سطحها تخطيطات عاداتنا".

"مادمنا سنموت، فليس لأى شىء معنى"

وقلب صفحات أخرى، وهو يستعيد كم أثرت فيه هذه العبارات، وكم تؤثر فيه الآن...

"وإذن فالعالم ليس عبثيا، ولكنه ببساطة "لاعقلانى". وما هو عبث إنما هو مقابلة الوعى..."

- وما هو مفهومك للعبث والوعى يا توفيق؟

- إننى لا أشاركك فلسفتك يا سامى. كف عن هذا التشاؤم والتأثر بكامى وعبثيته.

- إن "كامى" ينطلق من أساس العبثية ولكنه ينتهى إلى نظرة إيجابية تمردية خلاقة. كم هم مظلومون هؤلاء الوجوديون هنا إذ يساء فهمهم. غير إننى لا أتقبل عبثية كامى فقط، بل أتقبل تمرده . وأتقبل أيضا دفعة الحياة لدى همنجواى، وطموح المتنبى، واستعلاء جويس، وبناء بروست.

وتذكر سامى الخطة الأدبية التى كان قد وضعها...

"ما هو جواب هذه التجربة؟... الجواب الأول، الانتحار".

... منذ سنوات لكى يتخصص فى قراءة عدد من الكتب والشعراء الذين وجدهم أقرب إلى نفسه من غيرهم...

"الجواب الثانى: الأمل. أن الوعى - إذ يجابه الجدران العبثية - يبحث عن حياة جديدة"

ولاحظ جمعا من السياح الأجانب يدخلون إلى القاعة ويمرون منها إلى المطعم. وترك توفيق ما يقرأ واستدار دورة كاملة ليملأ عينيه منهم.

... وكان من هؤلاء الكتاب همنجواى وجويس وكافكا والمتنبى والبيركامى.. جنسيات مختلفة وأفكار متباينة يجمع بينهم جميعا الإخلاص فى الإبداع والتعبير...

"الجواب الصحيح: التمرد - تجاه الانتحار والأمل ينبغى مجددا توكيد طرفى التجربة بقوة: الوعى أولا الذى ينبغى دعمه"

وها هى فتاة فرنسية تتطلع إلى الكتاب الذى بين يديه، ربما لأن عليه صورة كامى.

وانقطع هذا السيل من القراءة المتصلة على طريقة سامى، وهى طريقة تدرب عليها طويلا منذ زمن: أن يقرأ جيدا وبعمق ما بين يديه، على ألا يفقد الإحساس الكامل بكل ما يجرى حوله وبكل من يروح ويجئ أمامه، بل ومع تبادل حديث عابر أيضا، مع اشتراك أفكاره الداخلية وتيار وعيه فى كل هذا. ربما كان قد تعلم هذا من همنجواى أو من كولن ولسون. هام جدا الإطلاع على تجارب الفنانين والأدباء الشخصية.

قطع هذا السيل حضور عدلى، وهو واحد من أصدقاء توفيق، وعن طريقه أصبح صديق سامى أيضا. وجلس عدلى كعادته، فاغرا فاه فى قرف وإدعاء ، وكانت هذه حركته الأثيرة للتعبير عن ضيقه من حياته ومن المجتمع الذى يعيش فيه ومن الناس الذين يحيطون به . وكانت نظراته زائغة تتلفت فى قلق وتمسح من حوله فى استكشاف مبدئى . وكان إذا وقعت عيناه على أحد يعرفه قام من مجلسه على الفور وتوجه إليه حالا دون أى التفات لمن كان يجلس معهم.

جلس عدلى يتحدث مع توفيق عن أشياء تخصهما وعن أشخاص يعرفانهم هما الاثنان ولا يعرفهم سامى. ورغم أن "سامى" كان قد وضع الكتاب جانبا ليشارك فى حديث الاثنين، فإنه وجد نفسه بعيدا عن حديثهما. كانا يتحدثان عن أشياء لا يعرفها ولا تهمه فى شىء، فاكتفى بالانصات والابتسام من آن لآخر حين يستدعى الأمر. كان عدلى يقص على توفيق أخبار الفتيات اللاتى يعملن معه فى المكتب، وكن جميعا من زميلاتهما فى الكلية. وكان توفيق ينصت إلى عدلى بانتباة غريب واهتمام دافق، فقد كان عدلى شهيرا فى أمور الفتيات والحب والغرام. كانا فى عالم خاص بهما ولا يحتمل وجود ثالث. وأحس سامى بنفسه يبتعد شيئا فشيئا عنهما روحيا ونفسيا، ولكن لم يكن ثمة مجال للتراجع مرة أخرى إلى عالم الكتب والمجلات، ولذلك لم يبق أمامه إلا الانصات الصورى. وحاول مرة أن يتدخل بالقول بأن "عدلى" لم يشرب شيئا، فلم يكادا يلتفان إليه، بل رد توفيق فى عدم إكتراث بأنه سيطلب حين يمر الجرسون.

وتطرق الحديث بين الصديقين إلى قضاء فترة المساء ، وذلك دون اعتبار للصديق الثالث الذى كان قد خطط أن يقضى بقية اليوم مع توفيق إلى أن يحين موعد الذهاب لاستلام صورة الشهادة من محل التصوير.

– ما رأيك يا توفيق فى الذهاب إلى النادى، باستطاعتى اصطحابك معى بوصفى عضوا.

– والله أنها فكرة جميلة. غير أننى أفضل يا عدلى قضاء بقية اليوم فى وسط البلد.

– إذن لا مناص من الذهاب إلى السينما. أو لنقض فترة المساء عندى فى شقتى بالبنسيون . ماذا تفضل؟

– أى فيلم هناك لم نشاهده بعد؟

– أن معى تصريحين لدخول سينما "قصر النيل"، وهى تعرض فيلما مشوقا عن قصة لأجاثا كريستى التى تحبها.

– لقد شاهدته بالفعل، ولكن لا مانع عندى من رؤيته مرة أخرى. ولكن، لنترك القرار لما قد يستجد من أحداث.

يالله ، كيف انزويت أنا فى ذلك المكان حتى لم يعودا يشعران بوجودى معهما؟ وأنا الذى كان توفيق قد تواعد معى أصلا على تمضية المساء معا. هاهما يتواريان عنى رويدا رويدا ويتوهان فى الظلال. ولم يعد صوتهما يصل بعد إلى مسامعى. أفضل شىء أن أتوه أنا أيضا فى ظلال أخرى مختلفة.

-7-

إنى أرحل منشدا فى البحار
أعود لاستنشاق الجذور
غامض هو عنوانى
أعيش فى أعالى البحار
وفى مرتفعات الأرض
مدينتى هى الجغرافيا
شارعى هو "أنا ذاهب"
ورقمه: "إلى حيث لا عودة".

"بابلو نيرودا"

وأفاق سامى من تجوال ذكرياته وتأملاته على ضحكة صاخبة من الصديقين اللذين لم يعودا يشعران بوجوده. ثم أخذت المناقشة بينهما شكلا جادا، وإن كان نقاشهما يبدو سطحيا فى أذن سامى كالعادة. وكان توفيق يحاول اقناع عدلى بقبول عرض وكالة أنباء أجنبية بالعمل فى مكتبها فى بيروت.

لشد ما أسهل السفر على هؤلاء القوم. وأنا الذى يمكن أن أحل مشاكلى كلها مع سناء بالسفر، لا أكاد أحمل نفسى على قبول الغربة وترك الوطن. ومع ذلك لا يمكننى أن أمنع نفسى فى الشعور بالغصة لاهتمام سناء بالسفر وبمن يسافر. وأنت ترى حياتك هنا، فى الكتابة، باللغة العربية ، وفى تمثل هذه اللغة وهضمها والخلق والإبداع بها.

وانتبه على صديقيه يدسان حاجياتهما فى الجيوب وفى الحقائب، ويشيران إلى الجرسون لدفع الحساب. وذكرتهما بأنى أنا الداعى ويجب أن يتركانى أدفع، ولكنهما ضحكا وقالا أن "عدلى" سيدفع لأنه خسر رهانا مع توفيق. ولم يزيدا فلم أستزد. وقلت لهما أننى سأسير معهما إلى السينما ثم أتركهما لأقضى أمورا هامة. فقالا أنهما لن يذهبا إلى السينما بل إلى شقة عدلى التى يستأجرها فى بنسيون بوسط البلد، لكى يلعبا الورق قليلا. واحترت هل هى دعوة لكى أصحبهما أم أنهما يودعانى، ولكن توفيقا سارع إلى القول بأننى أستطيع الذهاب معهما أن شئت. كانت الساعة قد جاوزت الخامسة وأمامى وقت طويل، ومازالت الشمس تطل على الدنيا، فلم يكن هناك بد من الذهاب معهما. وقال لى

عدلى متطلفا أننى سيسرنى رؤية مكتبته فى الشقة. وهكذا بدا أنهما يستثنيانى أيضا من لعب الورق معها، فحمدت الله على ذلك، لأننى لكم أكن أحب إضاعة الوقت سدى فى ألعاب سقيمة.

وخرجنا إلى ميدان سليمان، متجهين إلى شارع قصر النيل حيث كان عدلى يود شراء بعض اللوازم أولا قبل العودة إلى شارع الانتكخانة حيث البنسيون. وكانت السماء مصطبغة باللون الأرجوانى الأحمر من فعل الشمس الغاربة. وجال فى خاطره أستاذ الشعر فى الجامعة حين اصطحبه يوما خارج جروبى فتوقف أمام مثل هذا النظر طويلا، وطفق يتأمله ويدعو "سامى" إلى تأمله، وشرح له كيف تتغير الصورة تماما حين يطيل النظر إليه وتتسلل إلى اللوحة أشكال أخرى دفينة فيها، وهى ما تثبت فى الروح تلك الجمالية التى يبتغيها الفنان من الفنون التشكيلية. وتذكر سامى ما قفز إلى ذاكرته يومها، قصائد الشعر التى قيلت فى وصف الغروب والشمس الغاربة. لكم أجاد الشعراء الرومانسيون فى وصف الطبيعة من حولهم ممتزجة بنفسهم وروحهم على النحو الذى عبر عنه أستاذ الشعر بإجادة.

وخطر له أن يخلق نقطة اتصال مع زميليه، وخاصة "توفيق" الذى يعرف عنه حبه للفن، وإن كان حبا على طريقته الخاصة. ذكر لهما حكاية أستاذ الشعر - وكان أستاذهما أيضا - مشهد الغروب فى شارع قصر النيل. فتبادلا حوارا سريعا على طريقتهما.

- آه، ذلك الأستاذ المأفون!

- لقد كان رجلا غريبا، وليس بعجيب هذا الذى قاله.

- أنه فنان على كل حال، وليس ببعيد عنا ما كان يفعله فى محاضراته حين ينفعل مع سطور قصيدة ما، وينتظر منا أن ننفعل مثله.

-أو تلك القصيدة المؤثرة التى تلاها علينا فى آخر محاضرة فى الليسانس مما أسال الدموع من عيون الفتيات.

فاضطر سامى إلى التدخل فى الحديث.

- حرام عليكما. إنى اعتبره أحد القلائل المجيدين ممن عبروا بنا فى حياتنا الجامعية . أن لديه مشروعات أدبية عظيمة للكتابة والترجمة، وله كتب عديدة فى السوق.

- نعم ، ولكن موضوع السحب هذا والشمس شيء من تخاريف المجانين!

ياالله! أهكذا تتحول الرقة والشاعرية والإحساس الرقيق بالجمال إلى جنون على أيدى هذين المخبولين. لا عجب والله أن ذكروا أن الفنان مظلوم دائما فى مجتمعه، وأن الناس الماديين أبعد الخلق عن فهم الفن وروح الفنان. وهو خطؤك انت لأن تريد أن تقحم عالما غريبا على روح اناس لا تفهمه . ولكن... "توفيق" ما باله قد انضوى تحت كنف عدلى إلى هذه الدرجة، وأنا الذى إن كنت قد تحدثت عن الفن فذلك له هو وليس لعدلى الذى أعرف أن باعه ليس طويلا فى هذه الأمور، رغم مكتبته إلى يفخر بها. إن الفنان عبارة عن تجارب وتمازج مع الفن، وإلا فلا. ولكن... لتهنأ بمشاعرك المختلفة عنهما. وقد قال "رامبو" قديما إن جسر

الفن الحقيقى هو الألم والجنون، ولابد من عبور ذلك الجسر. وضرب بعينيه فى نفس اللحظة إلى جانب من الطريق فاصطدمتا بآخر ملصق غطى الجدران فى القاهرة الحبيبة: "لن يمروا إلا على جثثنا".

-8-

يا ساقيي أخمر فى كئوسكـــما
أم فى كئوسكما هم وتسهيـــد؟
أصخرة أنا؟ مالى لا تحركنى
هذى المدام ولا هذى الأغاريد

"المتنبى"

ووصلوا أخيرا إلى البنسيون . صعدوا سلالم بيضاء نظيفة ناصعة. وأخرج عدلى المفتاح ودلف ثلاثتهم إلى الداخل. وجدوا أنفسهم فى صالة كبيرة مظلمة، وفى جوانبها ثلاثة أبواب، كل باب يؤدى إلى شقة صغيرة منفصلة ، تتكون من أنتريه صغير وحجرة نوم واسعة وحمام صغير، أما المطبخ فهو واحد مشترك للشقق الثلاث. هكذا شرح لهم عدلى، الذى تقدم إلى باب من الأبواب الثلاثة قادهما منه إلى شقته. وأعجب سامى بنظام الأنترية، الكراسى الواسعة المريحة ذات اللون الأخضر الداكن، بينها منضدة عليها لوح زجاجى تستبين من تحته بطاقات بريدية ذات مناظر طبيعية خلابة ، من سويسرا والدانمرك وأسبانيا. أجل الآن يتذكر أنه سمع أن "عدلى" كان على وشك الزواج من فتاة أسبانية من أشبيليه. ماذا تم فى هذا الموضوع يا ترى؟ لابد أن أسأله عن ذلك حين تسنح الفرصة، فقد يساعد على إذابة الجليد بينهما.

- تفضلا. خذ راحتك يا سامى. تعاليا إلى حجرة النوم فالمكتبة فيها إن أحببت أن تلقى نظرة.

واستلقيت أولا على أحدى الكراسى الوثيرة أستريح قليلا. ولكننى لم أستطع أن أقاوم حب الاستطلاع الذى غمرنى لرؤية الكتب.

كانت حجرة النوم واسعة مريحة، أشبه ما تكون بدائرية، يتوسطها سرير كبير مهندم، وفيها دولاب ملابس، ورفان ممتلئان

بالكتب والمجلات. وكان ثمة كثير من الحاجيات مصفوفة هنا وهناك، ولكن كل شيء كان يوحى بالنظام والنظافة.

وجلست على أرض الحجرة المفروشة ببساط سميك ، وطفقت أفحص الكتب. كان معظمها كتب لتعليم اللغات. ثمينة نعم. وكتب فى الصحافة والإعلام. وبعض الكتب الأدبية . كثير منها بالفرنسية . وفقدت اهتمامى. لم تكن بالنوع الذى يستهوينى. وجلست اتطلع إلى الفراغ.

وجاء توفيق وعدلى، وخلعا حذاءيهما وجلسا على السرير. وآخرج عدلى مجموعتين من ورق الكوتشينة. وعندها دعانى إلى الانضمام إليهما فى اللعب. وقبلت على الفور، فلم يكن ثمة كتاب يمكن أن استغرق فى قراءته وحدى. غير أننى لمحت كتابا هناك فى اشتقاق اللغات كنت أبحث عنه منذ مدة، وكنت أفكر كيف أعرض على عدلى أن يبيعنى إياه. وكنت أميل إلى محاولة الدخول إلى عالمهما الغامض فى عينى، الذى يطفو دائما على السطح والذى كنت عاجزا على الدوام عن فهمه، ولأننى كنت قد تعبت من التفكير والتأمل فى أشيائى الخاصة الداخلية . ولكن، لا أدرى لماذا دعانى عدلى لمشاركتهما اللعب. لا يهم. ربما أراد هو الآخر أن يتعرف على عالمى، أو أن يدخلنى عالمه، وهو الأرجح. أو ربما لأن اللعبة لا تحلو إلا بثلاثة، أو ربما طمعا فى كسب بعض الأموال منى.

وخلعت حذائى وتربعت معهما على السرير. والتفت الرءوس حول أرضية السرير وعليها ورق اللعب، ثلاث رءوس

شابة تقطع الوقت بالتسلية. وبدأت اللعب دون اهتمام، فقد كانت لعبة قديمة تمرست عليها كثيرا فى أيام صباى حتى أتقنتها.

ووجدت أننى فى الغالب أربح منهما. وكان اللعب بمقادير صغيرة من النقود.

وأخذت الأعصاب تتوتر تدريجيا، وهذا هو المطلوب من لعب الورق بين المحترفين. وانقعدت فى سماء الحجرة دوائر من دخان السجائر، ودخلت معهما فى دوامة اللعب الحقيقية شيئا فشيئا، فبدأت أدخن، ولم أعارض فى كأس من الجين أحضره عدلى ومزجه لى بعصير البرتقال. وتحولت الجلسة تدريجيا إلى حلقة جنونية، ثلاث رءوس وشيطانية تنعقد فى دائرة فوق ضحيتها، تحوطها حلقات دخان تكاد تخنق الغرفة بمن فيها، ويتلألأ وسط هذه الهالات الضبابية ماء الجين المشعشع بالثلج البارق. ولم أكن فى حاجة إلى الدعوة لمزيد من الشراب، بل كنت أعب من الكأس وأنا فى نشوة من الربح، فقد رأيت فى كسبى من هذين الصديقين درسا لهما على قدرة عالمى وسطوته إزاء عالمهما السطحى.

وقطعنا اللعب فترة نستريح فيها بعد وقت من اللعب المتواصل ، انتقلنا فيها إلى الأنتريه حيث أكلنا طبقا من المشهيات طلبه لنا صاحب الشقة من مطعم البنسيون . وأكلت بشهية مفتوحة تعزى إلى انتصارى الواضح فى اللعب.

واستلقى توفيق وعدلى كل على فوتيل مريح أمامى، واستأنفا السياحة فى عالمهما الخاص الذى كنت أشعر أننى غريب

عنه، يتحادثان عن أشخاص وفتيات وعالم كنت أنا خارجه تماما. وشعرت إلى جانب هذين الصديقين وفى وسط هذه الشقة المليئة بالكتب وأمام هذه المشهيات المحببة والتى طالما فتنتنى، بوحدة عارمة. وكان لزاما أن يبتعد صوتا الصديقين عن مسامعى وأن أغرق مرة أخرى وأخرى فى ذكريات عالمى المتوحد الفريد. وكان يعزينى النجاح الذى لاقيته فى اللعب والمزيد من النقود التى أشعر بها الآن تعمر جيبى. وكنت أفكر ماذا سأفعل بها وما يمكن أن تضيفه إلى عالمى الجميل: فمن رحلة رومانسية مع نجلاء تعادل الرحلات الرومانسية وغير الرومانسية التى قضيتها مع سناء إلى رحلة أدبية وسط مكتبات القاهرة انتقى منها الكتب التى أهفو إلى شرائها، بل وحتى إلى رحلة وفاق طويلة أخرى مع سناء نفسها!

وبعد فترة ، تسلل إلى مسامعى مرة أخرى صوت الصديقين...

– هذه الفتاة لطالما كنت أود أن ألتقى بها، لأبدأ قصة معها، an affair يعنى، خاصة وأنها كانت تميل لى وتضحك معى دائما، ولكن لم يكن لدى وقت لذلك فقد كنت مشغولا مع تلك الفتاة الإيرلندية التى جاءت زائرة من عند أخى الذى يدرس هناك وكان على أن أصاحبها طوال الوقت بكل ما يعنيه ذلك... (ضحكات)... هيا بنا، هيا نعاود اللعب، هيا يا سامى.

اجتذبتنى تلك الدعوة من عالمى الخاص الملىء بهذه الأحلام الوردية وردتنى إلى واقع هذه الشقة الصغيرة وواقع هذين الصديقين المتواجدين معى جسدا والغائبين عنى روحا. وعدت إلى

واقعهما مفتعلا صفة الحماس إلى اللعب، واضعا على وجهى ذلك القناع الذى يشى بالمشاركة ولا يفضح حقيقة نفسى الغائبة. وتركت أفكارى وأسرعت إلى السرير الذى كنا نلعب عليه. وسرعان ما تحلقت مرة أخرى الدائرة الشيطانية، ورءوسنا الثلاثة محنية على الورق فى قلق وترقب كأنما هى رءوس الشياطين تحدق فى ضحيتها قبل أن تنقض عليها لتمزقها تمزيقا وتفترسها. وعاود توفيق اللعب وعلى وجهه ذلك المظهر اللامبالى الذى كان يخفى وراءه قلقا من الخسارة. وكان قلقه لا يصدر عن رغبة فى الربح بقدر ما يصدر عن رغبة فى إظهار مهارته فى اللعب وتفوقه على سامى فيه أصلا. أما عدلى فلم يكن له شأن بهذا أو بذاك، فهو يمضى فى لعبه كما فى حياته، ابن لحظته، لا يسعى إلا إلى ما يسر النفس ويبهج الخاطر.

ومضى اللعب على قدم وساق بين حماس وفتور ودخان سجائر ينفثه الشياطين. ولم يكف الصديقان عن تبادل المزاح فيما بينهما، وتبادل أخبار الفتيات من معارفهما، بين لعبة وأخرى بينما سامى ينزاح رويدا رويدا مرة أخرى إلى عالمه وأفكاره وإن استمر فى اللعب بصورة آلية. وكان الوقت يمضى دون أن يشعروا، ولكن "سامى" اضطر إلى أن ينبه صديقيه إلى أن الوقت قد بدأ يتأخر وأنه لابد أن ينهى اللعب عن قريب للذهاب إلى محل التصوير لأخذ صورة شهادته قبل أن يعود إلى المنزل. ولذلك فقد اتفقوا فيما بينهم على مواصلة اللعب لمدة نصف ساعة أخرى فقط ينهون بعدها كل شىء، ربح من ربح وخسر من خسر.

وكأنما كانت هذه هى الإشارة المنتظرة لتحول الحظ عن سامى. ذلك أنه رغم شحذ حواسه للإقبال على اللعب بكل طاقاته فى هذه الفترة الأخيرة ، لتعزيز مكاسبه، إلا أن الحظ هو الحظ، فقد أخذ يخسر تباعا فى أدوار قصيرة خاطفة ، حتى أنه لم تنقض الفترة المتفق عليها إلا وكان قد خسر كل ما ربحه كما حقق أيضا خسارة من حر ماله.

وكانت الساعة قد شارفت على التاسعة مساء.

وشعر سامى بذلك الإحساس الخفى بالانسحاب مرة أخرى من العالم المحيط به ، وبتلك المرارة تترسب ثانية فى قاع النفس، بذهاب تلك الأحلام الوردية التى أحاطت بذهنه وأفكاره ومشروعاته حين كان رابحا. وقام متخاذلا، يحاول إخفاء ما يشعر به من إحباط يخدر حواسه وأعضاءه عن عيون صديقيه. القناع، القناع، انظروا حامل القناع. ماذا بقى من لوركا الآن؟.

ولكنه لم يكن فى حاجة إلى الاستتار عن صديقيه، لأنهما كانا كالعادة يهمهمان فيما بينهما بأمورهما الخاصة التى لا تهم "شامى" فى كثير أو قليل، ولم يبد عليهما أنهما يعنيان بسامى أيضا. وعجب سامى فى داخليته من عدم الإكتراث الذى يبدو على الصديقين، لا بالمكسب ولا بالخسارة. وتمنى فى نفسه لو كان لديه عدم الإكتراث هذا نفسه. وحتى انتصار توفيق الأخير عليه فى اللعب. لم يعد يبدو منه شيئا فى عينيه اللامباليتين، كأنما سامى لم يعد إلا صفرا ضائعا فى هذه الحجرة الشيطانية.

أخذ سامى يلملم حاجياته استعدادا للرحيل. وأمسك بكتبه وصحفه، ثم دس يده فى جيبه ليتأكد من وجود مفتاح منزله معه، كعادته دائما . وفى نفس اللحظة التى هم فيها أن يقول لصديقيه مع السلامة ويذهب ، إذا بجرس الباب الخارجى يدق داخل شقة عدلى، وإذا عدلى يتبادل نظرة سريعة مع توفيق ثم يقول : "لابد أنها سميحة"، ويذهب سريعا خارج الشقة إلى الصالة المشتركة ليفتح الباب الخارجى. وتسمر سامى فى مكانه وقال لتوفيق متسائلا: "من سميحة هذه؟" ، ويرد توفيق : "أنها إحدى الفتيات اعتادت أن تزور "عدلى" لتعرض خدماتها عليه وعلى أصدقائه. لماذا لا تبقى معنا لتشاركـ؟" . فرد سامى دون تفكير وقد بهتته المفاجأة: "إذا كان ممكنا. ولكنى أخشى أن يتضايق عدلى من ذلك".

- لا أظن هذا فهى بائعة هوى محترفة وليست صديقته. اننى لا أعرفها شخصيا ولكنه حدثنى عنها قبل ذلك. امكث معنا ثم أنها لا تتقاضى ثمنا مرتفعا فانتهز الفرصة.

- كم يا ترى؟

- أظن ثلاثة جنيهات للشخص. طبعا هناك فتيات أرخص من لك، ولكن سميحة على الأقل - كما قال لى عدلى - مقبولة الشكل وخفيفة الدم ونظيفة.

- لا أعرف، ولكنى مازلت أخاف أن أكون متطفلا عليكما.

قال سامى ذلك وصوت عدلى الصاخب يعود إذ هو يضحك مع سميحة التى دخلت الأنتريه لشقة عدلى فى المقدمة يتبعها هو.

كانت فتاة فى مقتبل العمر، تبدو للوهلة الأولى متوسطة الجمال، طويلة شيئا ما، بيضاء ناصعة . وكانت ترتدى تاييرا أزرق ناصعا أبرز بياض بشرتا أكثر فأكثر، بينما عقصت شعرها، الذى يميل إلى الإصفرار الاصطناعى، فى التسريحة التى كانت منتشرة أيامها وهى تسريحة ذيل الحصان التى خلعت على وجهها براءة وطفولية تناقضتا تماما مع المهنة التى تتعيش منها. وتسمر سامى فى مكانه فى تلك اللحظة، بينما مدت الفتاة عينيها فرأت "توفيق" و"سامى" فضحكت وقال لعدلى: "آه، أن عندك ضيوفا". فسارع توفيق بالقول وهو يهش ويبش كعادته كلما رأى أنثى: أنا توفيق محسن وهذا صديقنا سامى سالم"، فقالت الفتاة : "وأنا سميحة ، هكذا فقط، بلا ألقاب". وتدخل عدلى ودعا الجميع إلى الجلوس ، وأحضر كرسيا إضافيا من صالة البنسيون العامة ليجلس هو عليه. وجلس سامى وهو فى حيرة من أمره، أيبقى معهم أم يستأذن فى الخروج. ولكن حب المغامرة، والخشية من تفسير استئذانه فى هذا الوقت على محمل آخر، جعلاه يجلس معهم وقد قرر فى نفسه أن يسير فى هذه التجربة حتى منتهاها ليرى ماذا تحمل له من جديد. ربما ألهمته قصة جديدة أو تجربة شعورية ينقلها بعد ذلك فى كتاباته.

وانعدت جلستهم فى الصالون وقد جلس توفيق إلى جوار سميحة يميل عليها هامسا، ثم جرى ليحضر لها شرابا. وبدأت سميحة الحديث وهى تقول فى طلاوة:

- أنى أرى جميع شقق البنسيون مغلقة. هل يا ترى فى كل واحدة منها فتاة مثلى؟ ها... ها...

فرد عدلى: يالك من شقية. ربما. ولكن لماذا تسألين؟ لا تقولى أنك تفكرين فى المرور على كل شقة منها بعد الفراغ منا، هه؟

سميحة: كفى هذا يا "ديدى" . أتظن أننى لن أكتفى بثلاثة زبائن هذا المساء؟

عدلى: ثلاثة ؟ من قال لك أن صديقى سيشتركان معى؟

توفيق : طبعا، أنا سأشترك . هل يمكن لأحد أن يرى طبق حلوى شهيا ثم لا يذوقه؟

وغرق سامى فى بحر الحيرة والتردد. الآن جاء دوره ليقول شيئا، ولكن... سميحة: والأستاذ؟

سامى : طبعا، طبعا. أن ذلك يشرفنى...

(يشرفنى ! أى أبله أنت! أهذا مقام مثل هذه الكلمات!)

عدلى : ها قد ضمنت ثلاثة زبائن.

سميحة : وأى زبائن ، أدباء وكاتبون، أليس كذلك؟ مادام الأستاذان صديقيك فلابد أنهما مثلك، فى نفس الصنعة.

(الصنعة! أيتها البلهاء!)

توفيق: أجل، أجل، أننا كتاب. وسامى حتى نشر كتابا مؤخرا.

سميحة: نشر كتابا . يا حلاوة!

سامى: أجل، ولكن هذا لا يمنع أننى مهتم بأشياء أخرى غير الكتابة والأدب.

سميحة: مفهوم، مفهوم. أجل، هكذا انطلق وافصح عن حقيقتك! إننى أعرف من خبرتى أن أكثر الناس صمتا وعزلة هم أحسنهم فى مجالات أخرى وأماكن أخرى.

عدلى: أماكن أخرى؟ ماذا تعنين ؟ فى العمل مثلا؟

سميحة: عمل ماذا يا "أبو" العمل أنت! أعنى أخرى وثيرة مريحة تهتز بالمرء حين ينقلب عليها!

وطفرت حمرة إلى وجه سامى ابتلعها الظلام وأخفاها عن أعين الجميع بينما انفجرت قهقهات الآخرين وسامى لا يجد أمامه إلا أن يتمتم: عظيم... عظيم...

عدلى: لا تتعبى نفسك يا سميحة، فهو لن يعطيك أكثر إكراما لهذه التحية.

توفيق: أن "سامى" بطبيعته يعطى أكثر دائما سواء نتيجة تحية أو بغيرها، فهذه سجيته.

سميحة: هكذا الكلام وإلا فلا. ولكن لا تظن أننى مادية وأن النقود هى كل شىء عندى. أنت تعرفنى يا "ديدى" وتعرف أننى أختار زبائنى، وكلما كانوا على شاكلة الأستاذ سامى كلما زانى هذا سعادة وسرورا وهيمانا... ها... ها...

توفيق: أستاذ سامى؟ ما هذه الأستاذ؟ قولى له سامى فقط أو حتى سمسم فالموقف يسمح بهذا... ها... ها...

وكان سامى أول المقهقين معهم. ولكنه كان يردد فى نفسه: ما هذا الهذر؟ هذه الأمور كان لابد وأن تكون فى خلوة بينه وبين الفتاة وليس هكذا على مسمع الجميع. أى ابتذال هذا... لقد وقعت فيه... ولكن هذا هو خير دواء لعلاج أزمتى مع سناء، فربما كان هذا اللقاء مع سميحة هو العصارة التى ستغسل آلامى وأشجانى وكل تاريخى الأسود مع حبيبة عمرى تلك. انه ربما سيجعلنى أهبط من الدنيا العالية التى أعيش فيها لأرتطم بالواقع وأفيق عليه، وطبعا ليس هناك محل للخيانة فى ذلك، لأن العلاقة بينى وبين سناء قد انتهت أو كادت.

وانتابه إحساس غامض بالراحة لذلك، فها هو أمل آخر فى تعويض العلاقة المحتضرة مع سناء، وكانت البداية مع نجلاء وهاهى سميحة أيضا التى ربما اختصته بحبها بعد ذلك، بعد أن تكتشف كم هو مختلف عن توفيق وعدلى وعن الأشخاص الآخرين الذين عرفتهم، بمعاملته الحساسة لها وتقديره لها رغم كل شىء.

وأفاق من تأملاته على منظر سميحة وهى تنهض ضاحكة وتقبل "عدلى" ثم تقول أنها ذاهبة إلى دورة المياه، التى اتجهت إليها فى ألفة شديدة بالمكان كما هى أليفة بساكنه. وانتهز سامى فرصة عدم وجود الفتاة ليسأل "عدلى" عما إذا كان لا يمانع فى أن يشترك معهما، فأجابه عدلى بأنه طبعا لا يمانع. وكان

سامى يود أن يقولها عدلى بحرارة أكثر أو أنه يرحب بذلك أشد ترحيب، أو شيئا مثل ذلك، ولكنها هى طريقة عدلى، وطريقة سامى المدققة المتشككة فى كل شىء وكل قول. ووضع سامى حاجياته مرة أخرى على منضدة الأنتريه وتهيأ لاستقبال هذه التجربة الإضافية التى جاءت على غير انتظار. ثم لاحظ أن "توفيق" و"عدلى" يتهامسان ويتحادثان بجدية فيما بينهما بصوت لا يصل إليه. وبعد فترة من هذه الهمسات التفت عدلى إلى سامى وقال له: طبعا أنت تحب أن تكون الأول، أليس كذلك؟

فأجاب سامى: أوه، هذا يكون أفضل بالطبع لا لشىء إلا لأننى كما تعلمان على موعد بعد ذلك لإحضاء صورة إحدى شهاداتى من محل التصوير. وأرجو أن أستأذنكما فى مغادرة الشقة فور انتهائى مباشرة وذلك حتى ألحق المحل قبل أن يغلق أبوابه.

فأجاب توفيق وعدلى فى نفس واحد: طبعا، طبعا.

وقال عدلى: أنك كما لو كنت فى شقتك.

وأضاف توفيق بانطلاقه المعهود، بعد أن خفت الكلام: أن هذا يعطينا فرصة لتجربة بعض الأشياء.

وتطلع إلى عدلى الذى ابتسم ابتسامة غريبة مستطيلة وقال مراوغا: "اسكت يا راجل" ! ثم التقت نظراتهما على شىء قد أسراه فيما بينهما. وأدرك سامى فى قرارة نفسه أنهما لابد قد اتفقا على تركه يدخل أولا مع سميحة حتى تتاح لهما الفرصة للانفراد بها على راحتهما وبدون أن يزعجهما وجوده . ولكن ماذا يهمه من ذلك؟ أنه سوف يكسب بدخوله أولا.

ودعاه عدلى إلى انتظار سميحة فى غرفة النوم، فى حين بقيا هما فى الأنتريه. ودخل الغرفة خفيفا منطلقا، وإن كان مع شعور بالحرج من قيامه بذلك العمل فى تلك الظروف: فى مكان ليس مكانه، ومع وجود شخصين فى الخارج ينتظران دوريهما. ولكن... ما العمل؟ لقد كان يفضل دائما الانفراد فى كل شىء والتكتم فى مثل هذه الأمور والعلاقات، ولكن ها هى المقادير تجرده من هذه الضروريات الأساسية بالنسبة له، ويجد نفسه يخون نفسه فى أدق ما كان يهتم به من ظواهر ينفرد بها عن عامة أصدقائه.

وأغلق سامى باب الحجرة وراءه، وبحث عن مزلاج وراء الباب فلم يجد، مما بعث فى نفسه قلقا جديدا. ووجد مفتاحا بالباب من الداخل، ولكن هل يا ترى سيجرؤ على غلق الباب بالمفتاح ومن بالخارج صديقيه وأحدهما هو صاحب الشقة ومضيفه؟

وبدأ يخلع ملابسه فى بطء ويسوى شعره فى مرآة الدولاب، حين فتح الباب دون طارق يستأذن واندفعت سميحة إلى الغرفة. وذهل سامى لمرآها، فقد كانت قد خلعت التايير وتبدت فى قميصها الداخلى، طبيعية، فى منتهى الراحة والاسترخاء والألفة بعملها. وأحس بالضيق الشديد لأن هذه الفتاة لا تعرف معنى الخصوصية،، إذ كيف تخع ملابسها هكذا خارج الغرفة. ولكنه أدرك فى الحال أنه يجب ألا يلومها على ذلك، فلم يكن مطلوبا منها أن تعرف الخصوصية ولا أن تكون حساسة تجاه

المعانى والمشاعر الخاصة طبعا، هذه هى مهنتها وهى قد أصبحت خبيرة بها لطول ممارستها لها. أنها على طبيعتها، كما تكون أنت مرتاحا وألوفا تماما حين تجلس وحدك تفكر أو تكتب أو تقرأ. هذه هى مهنتك الحقيقية كما أن تلك هى مهنتها الحقيقية. ورغم ذلك، أنت تعمل موظفا ، فى الظاهر، لكسب العيش كما عمل "اليوت" موظفا فى بنك، لكسب العيش. وهى... ماذا يا ترى تعمل فى الظاهر؟ الحقيقة هى الباطن غير المرئى لأعيننا، كما قال الأمير الصغير.

ولم يدر أن بعض الوقت الثمين قد مر إلا حين طرق سمعه صوت الفتاة يقول وهى تتوجه إليه:

- يبدو أن على أن أبدأ. وقد صدق صاحباك حين قالا أنك غريب بعض الشىء . وأنك خجول أيضا.

- الطامة الكبرى. هاهما يتدخلان فى شئونى!

- كلا ، كلا. هذه الأمور لا تعرف الخجل. أليس كذلك؟

- بالطبع، بالطبع.

وتقدمت إليك واحضنتنه . فاحتضنها سامى، وألصق شفتاه بشفتيها، دافنا رأسه فى سديم شعرها الثائر الفائر. وكان حينئذ أن دخل إلى رؤيا حلمية سحرية من الفانتازيا واللاوعى الخيالى. إذ وجد نفسه فجأة فى ممر حالك الظلمة، يلتمس طريقه لا بعينيه ولكن على هدى شعوره وبصيرته. كان يحس بأن هناك عيونا تترصده، عيونا من كل شكل ولون. منها عيون حمراء وردية يخالطها ذلك اللون البنى الفاتر، التى تبعث رؤياها تلك

الثورة الدافئة فى المشاعر والخيال. وحاول أن يمد يده إلى تلك العيون اليواقظ ليغطى ما كان ينبعث منها من أشعة ترسل اللهيب فى أعماقه ، ولكن كل محاولة منه لتغطيتها كانت تزيدها حدة ولهبا، ويجعلها تتطاول وتتعاظم أمامه. ولم يجد مفرا آخر الأمر إلا أن يقذف بنفسه فى أتون هذه العيون لتحترق فى لهيبها وتذوب... تذوب... تذوب.

ومضى يبحث فى الظلام الدامس عن أصابعه الذائبة، ليجد نفسه وقد تحول سابحا وسط تيار عنيف من المياه الهائجة الهادرة وهو يحاول بجهد جهيد الوصول إلى نقطة فى الوسط، جزيرة سوداء داكنة تعشش عليها الطحالب الخضراء المتشربة بمياه البحر المالحة. ويحمله الزبد الأبيض مع كل ضربة من ذراعه ناحية الجزيرة، فى نعومة وحريرية تتناقضان تناقضا واضحا مع هياج البحر. ويقترب رويدا رويدا من تلك الجزيرة، متلاحق الأنفاس، ثم ما أن يصل إليها وتلمس يده سطحها اللزج الذى تتشابك فوقه فروع الطحالب اللينة الخضراء، حتى يشعر بشىء يجذب جسده سريعا سريعا نحو الشاطئ مبتعدا عن الجزيرة الغامضة المنشودة.

ثم شعر بنفسه بعد ذلك فى أسفل جب ضيق، إلى جوار سلم حديدى عال طويل ينتهى عند فتحة فى الأرض ينفذ منها ضوء النهار. وقفز واقفا وأسرع إلى أولى درجات السلم يرتقيه ليصعد خارجا من هذا الكابوس المزعج. ولكن سياج الدرجات كانت مبتلة ، كان كلما صعد درجات هبط درجات أخرى، فى

لزوجة طاغية شملت أحاسيسه كلها. ولكن ذلك لم يفت فى عزمه على تكرار الصعود مهما كانت المثبطات والهبوط والسقطات، إلى أن شارف أعلى درجة، ومد رأسه وبصره إلى الفناء الفسيح المشمس فى الخارج، ورأى الحياة وبهجتها تتلألأ أمامه بكل معانيها. وأسكرته نشوة الضياء الساطع، مما جعله يرفع يديه إلى رأسه يتحسسها، فما شعر ألا بجسده يقع ثانية فى هوة الفضاء المخيفة، دون أن يرتطم بالقاع، بل يواصل السقوط إلى مالا نهاية.

وبدلا من الارتطام المتوقع، الذى أغلق سامى عينيه توقعا له، إذ به يجد نفسه فى دورة أخرى من دورات هذه الرؤيا العجيبة، واقفا على الأرض الثابتة مرة أخرى، ويفتح عينيه ، فيفاجأ بأنه فى وسط شارع الموسكى فى ذروة ازدحامه بالباعة والمشترين . ويمضى فى حلم على غير هدى، ضاربا ببصره إلى نوافذ المحلات كعادته. ووجد أمامه بائع كباب على عربة يد صغيرة، وقد وضع قطع اللحم - مقسمة أجزاء صغيرة - مغروسة من قلبها فى أسياخ حديدية معلقة على جمر متوهج من النار تنضج عليه فى مهل. وتعجب سامى لأن هذا المنظر لم يكن مألوفا فى القاهرة، ولا يذكر أنه رآه على هذه الشاكلة ألا فى بعض الأفلام الأجنبية التى يراها، لأن هؤلاء الباعة منتشرون بهذه الصورة فى بعض المدن الأوروبية ، كاليونان وإيطاليا وغيرهما من بلاد البحر الأبيض. وإنما كانت هذه أول مرة يراه فيها فى القاهرة، وأين ؟ فى قلب شارع الموسكى العريق النابض بالحياة.

ونوقف أمام البائع واشترى سيخا من تلك الأسياخ ومضى يتطلع فى استغراق والبائع يقدم له قطع اللحم والكفتة مرشوقة فى السيخ الحديدى، ويقذف إليه برغيف عيش متوسط الحجم. وكان الزبائن يأكلون قطع اللحم من السيخ مباشرة مع لقيمات من رغيف العيش، ثم يردون السيخ إلى صاحبه بعد الفراغ من الأكل. وأمسك سامى بالسيخ من مقبضه الخشبى، ونظر إلى قطع اللحم المتفسخة من وسطها، حمراء اللون وردية رائعة، مخترمة من آثار السيخ الحيدى المتوهج الحار، وقد تبدت في صفحاتها أخاديد يجرى عليها ما ينز منها من مرق ودهن. وانتظر برهة حتى تذهب عنها الحرارة ، ثم أخذ يجذب قطع اللحم بفمه من السيخ، ويلوكها مع قطع من الرغيف، كما يفعل الآخرون. وكان مذاق اللحم شهيا، وقد نضج على مهل على قطع الفحم من تحته، فالتذ بمأكله أيما التذاذ، رغم أنه لم يكن يحب أن يأكل هكذا على قارعة الطريق. وازداد إيقاع انتزاعه قطع اللحم من السيخ سرعة مع كل قطعة، رويدا رويدا، إلى أن وجد نفسه يندفع فى وحشية إلى التهام القطع الصغيرة قبل أن يمضغها مضغا كاملا، بل ويزدردها كأنما هو أصبح رجل الغاب البدائى الذى كان على ظهر الأرض فى العصر الحجرى أو ما قبله، ينقض على فريسته فيلتهمها التهاما دون روية أو تدبر.

ولكن... فى وسط هذه المعركة العصيبة مع قطع اللحم الشهية، إذ به يشعر بالسيخ الحديدى يلين بين أسنانه تدريجيا، وهو يتشبث به فى رجاء يائس ألا يفسد عليه مأدبته، حتى أصبح فى

النهاية فى لين قطع اللحم المركبة فيه، وإذا هو فى دوامة لايدرى فيها ماذا يصنع وماذا يأكل، أهو اللحم أم ذلك السيخ الذى استحال كالعرق الأخضر اللين الميت.

وفتحت الفتاة عينيها آخر الأمر ونظرت إلى سامى. ولما لم يقل شيئا، نهضت نصف قائمة على الفراش وقالت: هيه... وماذا بعد...؟

- لاشىء. يبدو أننى كنت متعبا منذ البداية.

ثم قال وهو يتشاغل بالضغط على صدر الفتاة ليرى كيف ينسحق تحت أصبعه ثم يرتد مرة أخرى فى بطء كالكرة المطاطية وأردف ببطء:

- أرجو ألا تظنى بى شيئا.

- كلا... ولكنى أخشى أن أكون أنا السبب. ربما أننى لست النوع الذى تحب. لقد رأيت ذلك كثيرا. قل لى أى شىء تريد وسأفعله لك.

وملأت هذه الخاطرة "سامى" بالأمل من ناحية، لأنها تشكل تفسيرا لديه لما حدث، وملأته بالإحباط واليأس الشديدين من ناحية أخرى إذ يرى أمامه فرصة عمل كل ما يريد ثم لا يستطيع أن ينتهزها.

- ربما مرة أخرى. لابد أن تعطينى عنوانك حتى أستطيع الاتصال بك حين أكون مستعدا.

- طبعا ... طبعا...

- ثم... هناك شيء هام أريد أن أطلبه منك... أنت تعرفين طبعا حساسية هذا الموضوع؟... وعلاقتى بصديقينا هذين... ذلك... أنه... أرجو أن تبقى ما حدث سرا بينى وبينك...

- طبعا... طبعا... اننى تحت أمرك.

ونهض فى تثاقل يلتقط ملابسه من هنا وهناك، ويرتديها فى بطء وذهول وقد شعر بالخدر يغزو حواسه. ها هى الدنيا تتحول أمام ناظريه فى وقت قصير مرة أخرى. هذا إذن أحد الجروح الجديدة التى سيتذكرها دوماً بعد ذلك فى مراحل حياته... وهاهو الآن لم يمض عليه سوى دقائق قليلة... فليقطر إذن هذا العذاب ويرتشفه على مهل. ترى كيف سينظر إلى هذا الأمر بعد مرور وقت طويل عليه؟

وألقى نظرة عامة على الحجرة بعد أن انتهى من ارتداء ملابسه . ثم أخرج حفنة من الجنيهات المفردة من جيبه، عد منها خمسة بالتمام والكمال، وأعطاها لسميحة، حتى تعرف أنه يعطيها جنيهين زيادة على أجرها. ثم قال لها فى مرارة واستسلام:

- هل أنت راضية؟

- أجل تماما. سأنتظر أنا هنا.

- طيب مع السلامة . ولا تنس.

- مع السلامة.

ثم فتح الباب. وليس ينس قبل أن يخرج إلى صديقيه أن يضع على وجهه قناعا مما تعود على وضعه فى المناسبات حتى يخفى أشد انفعالاته اضطرابا. وكان القناع هذه المرة قناعا من

الحبور والاسترخاء. ووجد الصديقين منهمكين فى الحديث والشراب، لاهيين فى عالمهما اللاهى، بينما هو ينسحب بسرعة فى الضوء إلى قرارة نفسه الكابية.

وصاح به توفيق:

- هيه ، هل انبسطت؟

- خالص.

وعلق عدلى:

- طبعا ، ألا ترى وجهه المستبشر!

وصاحا به فى نفس واحد:

- هل ستنتظرنا؟

فقال سامى:

- كلا شكرا. تعلمان أننى قد تأخرت على موعدى. هيا، شكرا جزيلاً يا عدلى، ومع السلامة.

- مع السلامة.

ولم يصحبه أحد إلى الخارج بالطبع، فقد كانا مشغولين تماما بخططهما مع الفتاة. فخرج إلى الردهة المضاءة بنور برتقالى شاحب، بدا تحته كأنه فى عالم خرافى، أو كصورة تتحمض تحت الأضواء الداكنة. وطفق ينتظر المصعد الكهربائى وهو مطأطئ الرأس غارق فى دوامة أفكاره. ومضت برهة وبرهات أحس بها قرونا، وشعر أنه رأى المصعد يرتفع أمام بصره إلى الطوابق الأعلى دون أن يقف عند طابقه. ورأى نفسه دون وعى يستدير إلى السلالم ليهبط عليها دون أن ينتظر المزيد.

وأخذ يهبط حلزونيا. وكان مع كل طابق يهبطه يشعر بقلبه يهبط إلى قرار أكثر غورا، رويدا رويدا، ويشعر هو بنفسه هابطا بالتدريج إلى قرارة اليأس، قرارة الصمت.

وحين بلغ ردهة الطابق الأرضى ، الذى يعلو عن مستوى الطريق شيئا، استحال كل شىء حوله إلى ظلام. وسار يتلمس طريقه متحسسا الدرابزين بيديه والدرجات بقدميه. لقد هبط إلى "هاديس" ، ولكن وحده دون مرشد ولا رفيق.

وشيئا فشيئا، انساب شعاع من نور إلى طريقه. لقد اقترب من باب العمارة الخارجى، ثم جازه. وكان الليل قد انسدل ، وتلألأت الأضواء المتواضعة على محلات وسط البلد. وتذكر أن البلد فى حرب وهناك قيود على الإضاءة. وأحس بمحنة الوطن، حين وقع بصره على ملصق جديد يبدو أنهم كانوا قد وضعوه لتوهم، وكان يصور مدن القناة مهدمة مهجورة يعلو عليها وجه عامل مصرى يقول: رغم كل شىء ، سننتصر.

-9-

رد كأسى عن فمى يا أيها الساقى ودعنى
وأفقْ من نشوة الراح ومن حلم التغنـــى

كل ما مر بنا وهم خـــيـــال أو تـــمنى
حسبنا وهــما، وحلما، وخيالا حسبنا

"أحمد فتحى"

انحرف سامى عند ميدان سليمان يسارا، ومر بالمكتبة الشهيرة ، وتطلع إلى الكتب المتناثرة على الرصيف بعيون زجاجية والضوء البرتقالى الخافت يخلع عليها مظهرا سحريا. وسار بخطى لا يحس بها طوال شارع طلعت حرب، عابرا الأماكن الأليفة لديه كالسائر فى منامه لا يزال، أو كمشاهد الأحلام فى الفيلم الذى رآه مؤخرا عن فرويد. الناس يضحكون من مناظر الهستيريا ، ربما لأنهم قد تعودوا على الهستيريا منذ اليوم المشئوم، وأنت والدكتور جمعة تستنكران ذلك. الآن سيضحكون عليك. ومن سيستنكر غير قلبك المحطوم. ربما حدث له ذلك من فرط الجراح التى سببتها له سناء. سناء هى الملومة أولا وأخيرا.

ووصل لا يدرى على أية حال إلى محل التصوير الصغير فى شارع فؤاد. أتمنى ألا تكون الفتاة إياها فى جولة غزلية أخرى، والا ضعت. الحمد لله هاهى وحدها.

وابتسم لها سامى، فلم ترد على ابتسامته بشىء. لا يهم ذلك. المهم هو الشهادة وصورتها. كان يتمنى لو كانت قد تذكرته من المقابلة السابقة. ولكن، يبدو أن الأمر غير كذلك، فلم يجد بدا من أن يطلب ما يريد.

– لى شهادة طلبت تصويرها ، وقلت لى أن أمر فى المساء لأخذها.

– الاسم؟

– سامى سالم.

واتجهت الفتاة إلى صندوق صغير فيه بعض الأوراق المشبوكة بدبوس وأخذت تفوزها بسرعة، ولكنها لم تجد اسمه، فعادات إليه تقول:

- الوصل من فضلك.

فدس يده فى جيب بنطلونه وأخرج رزمة من الأوراق أخذ يفتش فيها. البطاقة الشخصية ، صورة سناء، إيصال الجامعة الأمريكية ، كارنيه الوزارة ، إيصال الاتحاد الاشتراكى... و.. و... ولا أثر للإيصال اللعين.

وطال انتظار الفتاة ، فأخذت تتشاغل بترتيب حاجياتها تمهيدا لأن تغلق المحل وتنصرف. ولم يجد سامى بدا فى نهاية الأمر إلا أن يقول:

- متأسف. يبدو أننى قد فقدت الإيصال أو نسيته فى مكان ما. ولكنك بالطبع تذكريننى. لقد كان معى شهادة من المركز الثقافى الأسبانى بالقاهرة، وقلت لى أن ثمن تصويرها أربعون قرشا.

- آسفة ، إن لدينا مئات الزبائن كل يوم. سأبحث عنها مرة أخرى. ما الاسم ثانية؟

- سامى سالم.

وتكرر الفرز السريع من أصابع الفتاة، وتكرر عدم العثور على شهادته.

- ولكن أرجو أن تبحثى جيدا فى كل مكان. وأنا على استعداد حتى لدفع ثمن التصوير من جديد.

- ليس الأمر مسألة الثمن. ولكنى بحثت جيدا. ونحن لا نضع شيئا خارج هذا الصندوق. كما أن وقت الإغلاق قد حان.

- أرجوك يا آنسة. ردى لى الشهادة الأصلية فقط. إن مستقبلى معلق على هذه الشهادة.

فاتجهت الفتاة فى تبرم ظاهر ناحية طاولة أخرى فى ركن المحل وفتحت دفترا كبيرا أخذت تنظر فيه بسرعة، ثم توجهت إلى الدرج السابق الكبير وأخذت تفرز الأوراق للمرة الثالثة بصورة آلية. ثم هتفت من مكانها:

- لا يوجد أثر للشهادة التى تقول عليها. اننى واثقة إننى لم أرك فى المحل اليوم كما تقول. لابد أنك ذهبت إلى محل آخر غير محلنا.

محل آخر غير هذا المحل؟ هل هذا معقول؟ أفى حلم هو أو فى رؤيا أو فى كابوس؟

- أليس هذا هو محل "الصباح المنير"؟

- أجل . ولكن ليس لدينا شهادتك. أرجوك، إن على أن أغلق المحل الآن.

- ولكن... هذا إهمال...

- أرجوك يا أستاذ... مادام ليس معك إيصال منا فلا يمكنك أن تطالبنا بشىء.

- حسنا، ولكنى سأشكوكم إلى الشرطة، وإلى الغرفة التجارية وإلى نقابتكم...

- تفضل... أرجوك... أريد إغلاق المحل.

وخرج سامى مذهولا ولا تزال كلمات التهديد والوعيد على شفتيه.

أى يوم هذا؟ لقد ازدادت الدنيا ظلاما فى عينيه مع كل التلألؤ والبريق اللذين يتناثران هنا وهناك من المحلات والإعلانات الكهربائية، ها قد راحت منه فرصة أخرى. فلاشك أنه سيشكو ويهدد، ولكن لن يتم أى شىء - هذا إن تم على الإطلاق - ألا بعد أن يكون موعد التقديم فى الشركة قد فات. وحتى لو طلب شهادة أخرى من المركز الأسبانى فلن تصدر إلا بعد فوات الأوان.

وطأطأ رأسه وأحناها على صدره، ومضى فى طريقه إلى محطة الأوتوبيس القريبة ليعود إلى منزله، بينما ترن فى أذنيه ضحكات سميحة، ويتماثل له بريق الشهوة فى عيون صديقيه، بينما بريق آخر يتألق فى عينيه هو، مفضيا به إلى... لا شىء.

-10-

فإن كان الضياء الذى أشرق ذات يوم
قد راح عن عينى إلى الأبد
وإن كان قد غدا مستحيلا
استعادة بهاء العشب ورونق الورود
فاننا لن نأسى على ما فات
بل سنستمد قوة مما ظل معنا من بقايا.

"وردزورث"

وكما وضع سامى مفتاح غرفته فى جيبه ذلك الصباح، عاد يتحسس موضعه هناك بعد أن هبط من الأوتوبيس فى محطة الحى المشهورة ، كعادته كل مرة. وكان النيل يسرى رقراقا وسط الظلمة، كما كان يسرى يوم 5 يونيو 1967، وكما يسرى دائما، غير عابئ لتحطم الحياة من حوله.

وعبر طريق النيل الواسع ودلف إلى شارع الفردوس، ولم يكن منيرا مثل طرق وسط البلد. ولكنه وجده وهو على تلك الحال أكثر ألفة لديه ولدى عواطفه وقلبه من طرق وسط البلد المنيرة المضيئة. وأحس كأنه يعود إلى أهله وبيته بدخوله إلى ذلك الطريق. ما هو يرى على يمينه منزل صديقه خريج كلية الحقوق الذى لم يقنع بوظيفة المكاتب فاستقال وعمل محاميا وبدأ صيته ينتشر وزبائنه يكثرون. ومضى يسير وهو يشعر بأنه يزداد ثقة مع كل خطوة. وعن يساره منزل زميلته القديمة فى الكلية، شاهدة أحلامه وآماله. ومضى... ومضى... وها هو صالون الحلاقة الذى تعود أن يتردد عليه مرة كل شهر كانت تمثل له مهمة ثقيلة إذ هو يجلس تحت رحمة الحلاق وأدواته تعمل فى شعره وحديثه اللزج يعمل فى نفسيته ويثقل على أسماعه. ولكن منظر المحل كان مع ذلك محببا أليفا بعد الهوائل التى مر بها فى يومه – ألفة الأشياء اليومية الرتيبة التى لا مفر منها بين حين وآخر. ثم هاهنا العمارة البيضاء حيث شقة صديقه الفنان الذى طالما أمضى معه الأيام والليالى فى مناقشات الأدب والفن. ثم بعده محل الخردوات الشهير الذى كان يشترى منه دائما أدواته المكتبية المحببة. وهاهو

ينزلق يمينا ثم يسارا إلى أن يقوم أمامه منزله العاتى، تلفه الظلمة ويحيط به الغموض.

وإذ كان يدلف من باب العمارة الخارجى، عاد إلى تحسس مفاتيح الشقة. ياالله! كم كان هذا اليوم على قصره وحدوديته عامرا بالأحداث الجسام. اليوم يوم ليس إلا ، أربع وعشرون ساعة، بيد أن هناك أياما تمضى لا يكاد يكون لها وقع، وأياما تمضى تحمل فى طياتها أحداث سنوات وسنوات. وأخذت الصور تترى فى مخيلته وهو يرتقى سلم المنزل... المديرة... سناء... توفيق... عدلى... سميحة... محل التصوير...

وحين وصل إلى باب الشقة ، تسلل إلى سمعه صوت راديو الجيران، وكان المذيع يتلو نص بيان عسكرى عن إغارة وإسقاطات...

وفجأة ... تمثلت له خلفية يومه ذاك، فرأى نفسه رمزا لبلده، لأمته ، لقاهرته الحبيبة. وتوحدت مأساته التى عاشها فى يومه وما قبله مع مأساة وطنه التى يعيشها منذ فترة داكنة رمادية من تاريخه، ورأى أنه هو نفسه هذا الوطن الجريح الدامى، يتلقى الطعان فتتلم جسده ويثخن بالجراح فى كل جانب حتى لا يبقى فيه مكان لمزيد.

وأخرج المفتاح من جيبه وأداره فى الباب الجانبى ثم دفعه ودلف إلى داخل حجرته. ورأى فيها ملجأ وملاذا من هذا العالم الخارجى العدوانى الملىء بالإحباط وبالاندحار والآمال الكاذبة. رأى فيها حضنا دافئا يتلقاه دائما مفتوح الذارعين فى

ترحاب وألفة وحب فيعزله عن عالم الخارج بضوضائه وعدائه وآلامه.

وغمرته سكينة مفاجئة ، واحتوته الظلمة الدافئة والهدوء الكامل. فخلع ملابسه ورقد فى الفراش الذى تلقاه كما تتلقى الأم وليدها، واحتواه بين طياته التى التفت حوله كأنما تحميه من شرور الدنيا. وشعر بالدفء والحنين والهدوء والطمأنينة تعود إليه وترين على فكره وروحه وجسده. واستسلم لها، وأغلق عينيه وهو يفكر أن كل هذا لابد أن يعضده ويحميه ويجعل من غده انتصارا كما كان يومه محبطا.

تمت

القاهرة - مدريد - نيويورك
1980 - 1969

كتب مترجمة

- بابا همنجواى، أ. هوتشنر، دار الآداب، بيروت، 1967 (طبعتان).
- صورة الفنان فى شبابه، جيمس جويس، دار الآداب، بيروت، 1973 (طبعتان).
- عشرون قصيدة حب وأغنية يأس ، بابلو نيرودا، مطبعة العاصمة، القاهرة، 1976، طبعة ثانية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994.
- الآنسة روزيتا العانس، فديريكو غرسيه لوركا، سلسلة المسرح العالمى، الكويت، 1983.
- السيد الرئيس، ميجيل آنخل أستورياس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، 1985.
- حاضرة الدنيا وقصص أخرى، إرنست همنجواى، روايات الهلال، القاهرة، 1986.
- شاعر فى نيويورك، فديريكو غرسيه لوركا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996. طبعة ثانية عن المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، 1998.
- أسبانيا فى القلب، بابلو نيرودا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997.
- موت فلاح أسبانى ، رامون سندر، دار شرقيات ، القاهرة، 1998.

- غزليات نيرودا، بابلو نيرودا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، 1999.

- قصص من أمريكا اللاتينية ، بلدوميرو ليلو رورببن داريو وآخرون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 2001.

- الفن الروائى، ديفيد لودج، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002.

كتب مؤلفة

- لوركا شاعر الأندلس ، طبعة أولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993.

- عزلة النسر، رواية ، طبعة أولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1994.

- أفلام أهملتها الأقلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998.

- بين الفن والأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، 2001.

- رواة وروائيون من الشرق والغرب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001.

هذه رواية تجريبية، سيرى القارئ فيها كثيرا من أساليب جيمس جويس ومارسيل بروست وماركيز وغيرهم من الروائيين الذين صاغوا فن الرواية فى القرن العشرين. وقبل كل هؤلاء، الأثر الذى تركه «الأستاذ» نجيب محفوظ فى كل من قرأه واستمتع برواياته.

وهى كذلك رواية رمزية، تصل ما بين بطلها المأسوى وبين مأساة وطن، إذ أنها تنقل عبر أحداث تبدو مغرقة فى الذاتية، صورة لأزمة عصر بعينه. وخلفية الرواية هى مدينة القاهرة، وعالمها هو شخصية البطل بأحاسيسه وأفكاره وتجاربه التى يغلفها الخيال والرؤى والأحلام. وقد نالت الرواية فى طبعتها الأولى جائزة المجلس الأعلى للثقافة للرواية العربية عام ١٩٩٧.

مؤلف الرواية هو ماهر حسن البطوطى، صاحب الدراسات النقدية الأدبية والترجمات من الإنجليزية والأسبانية. وهو يعمل بالترجمة والتحرير فى الأمانة العامة للأمم المتحدة بنيويورك.

وقد قدم للرواية الناقد المعروف الدكتور ماهر شفيق فريد، الأستاذ بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة القاهرة. وقد صدر له، إلى جانب الأعمال النقدية فى الرواية والشعر والقصة القصيرة، مجموعة قصصية بعنوان «خريف الأزهار الحـ ... ات أهمها «قصائد ت.س. اليوت» و«المخـ ... ثة أجزاء» و«مختارات من النقد الأنجلو ...





